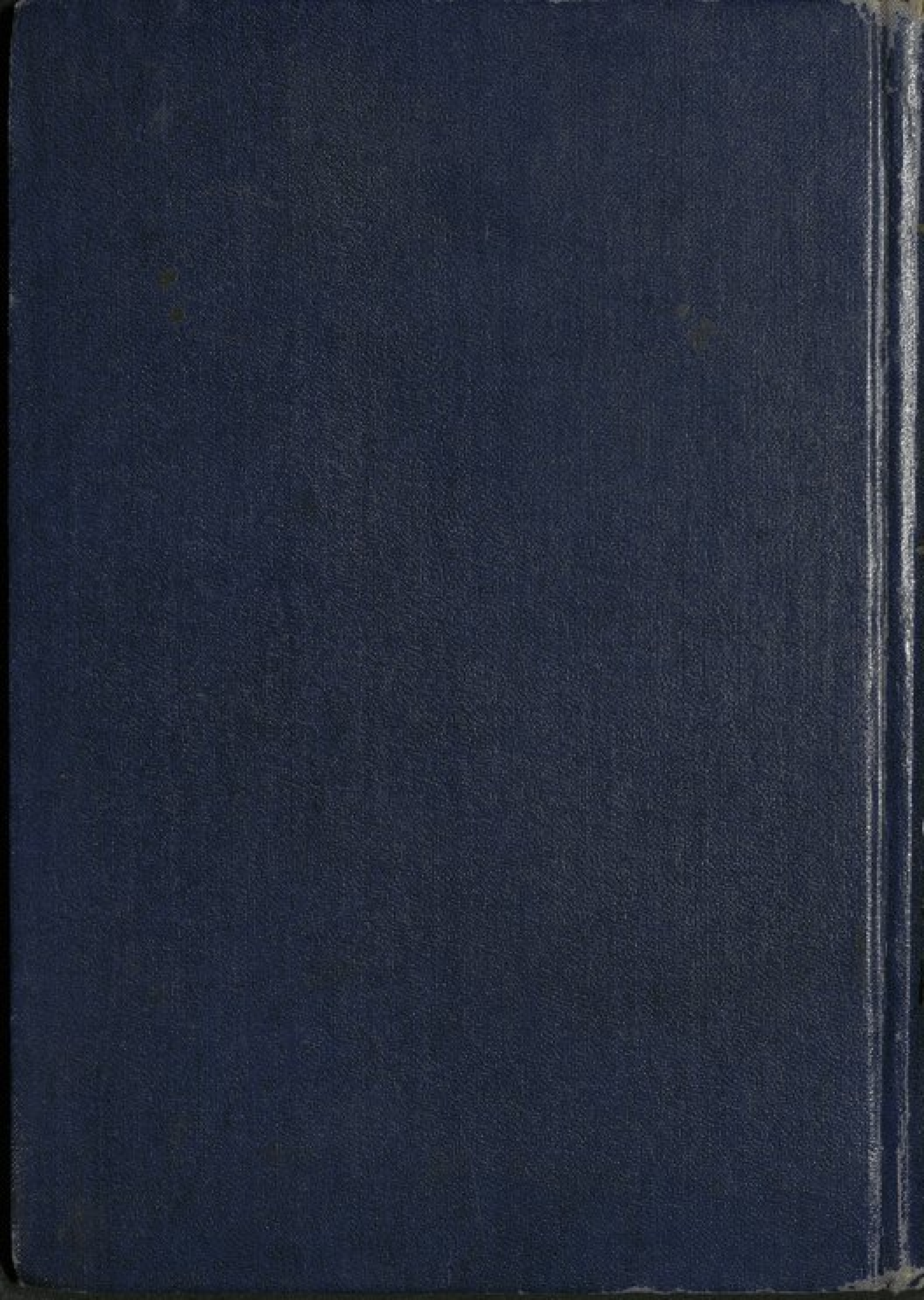
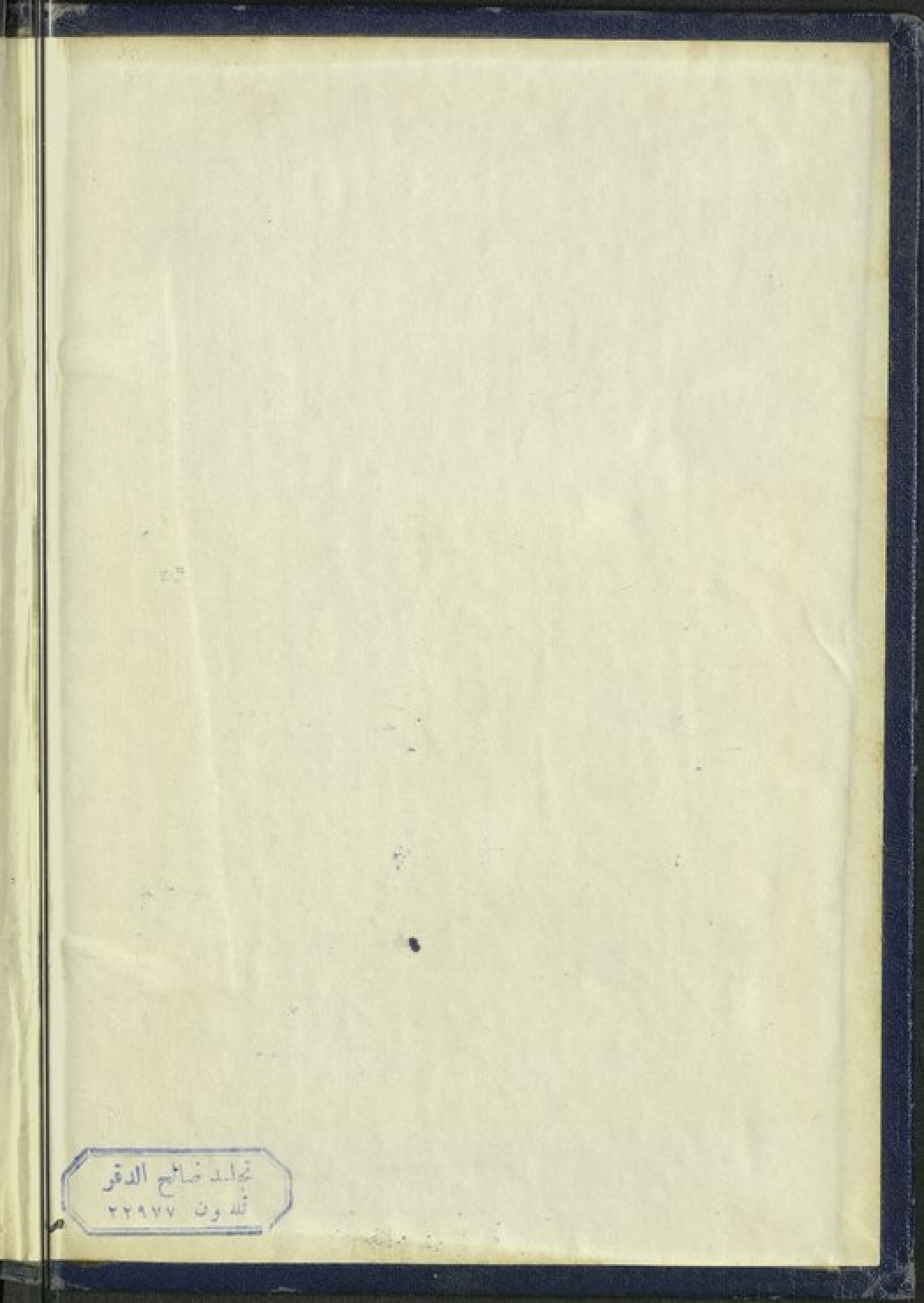
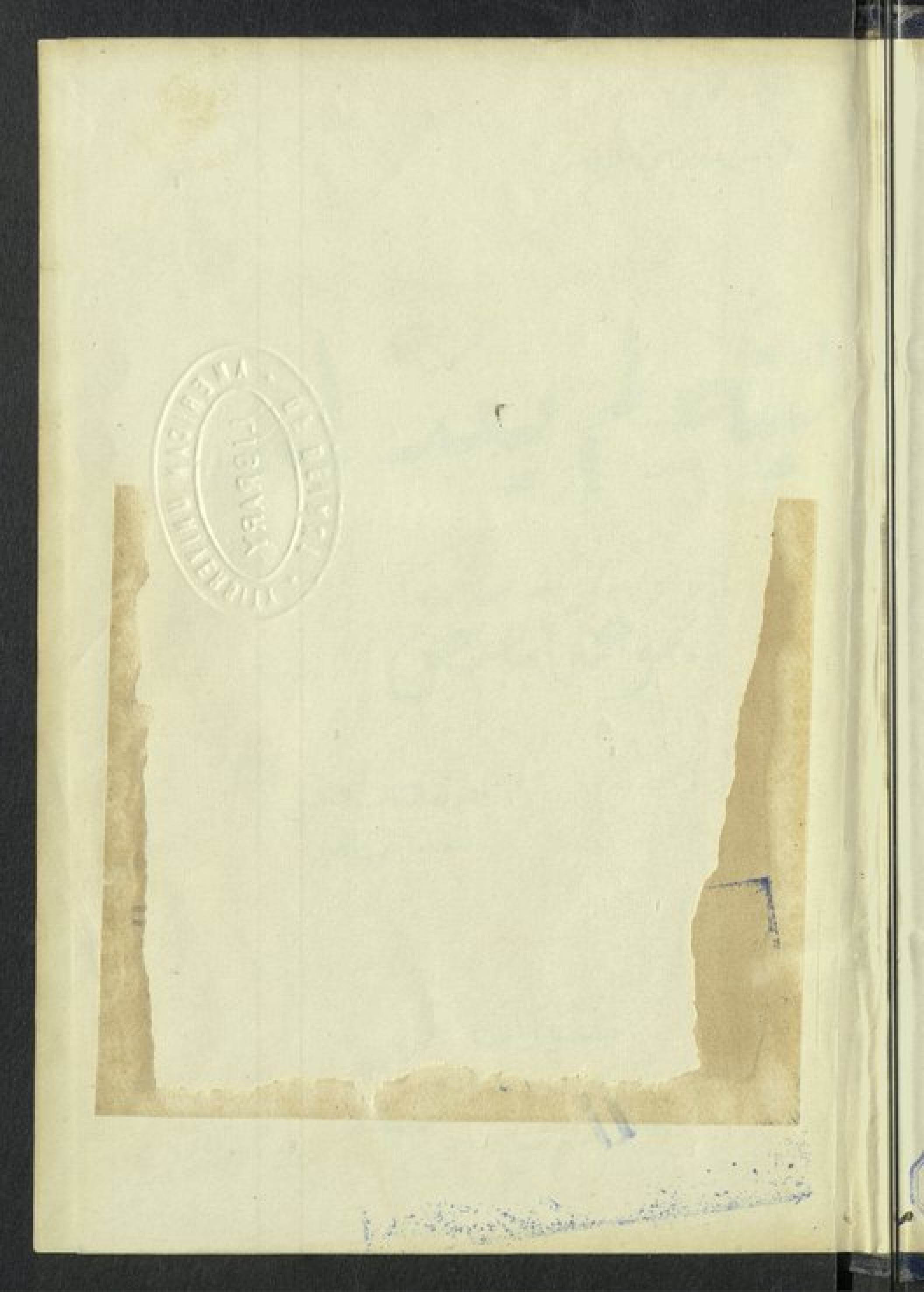
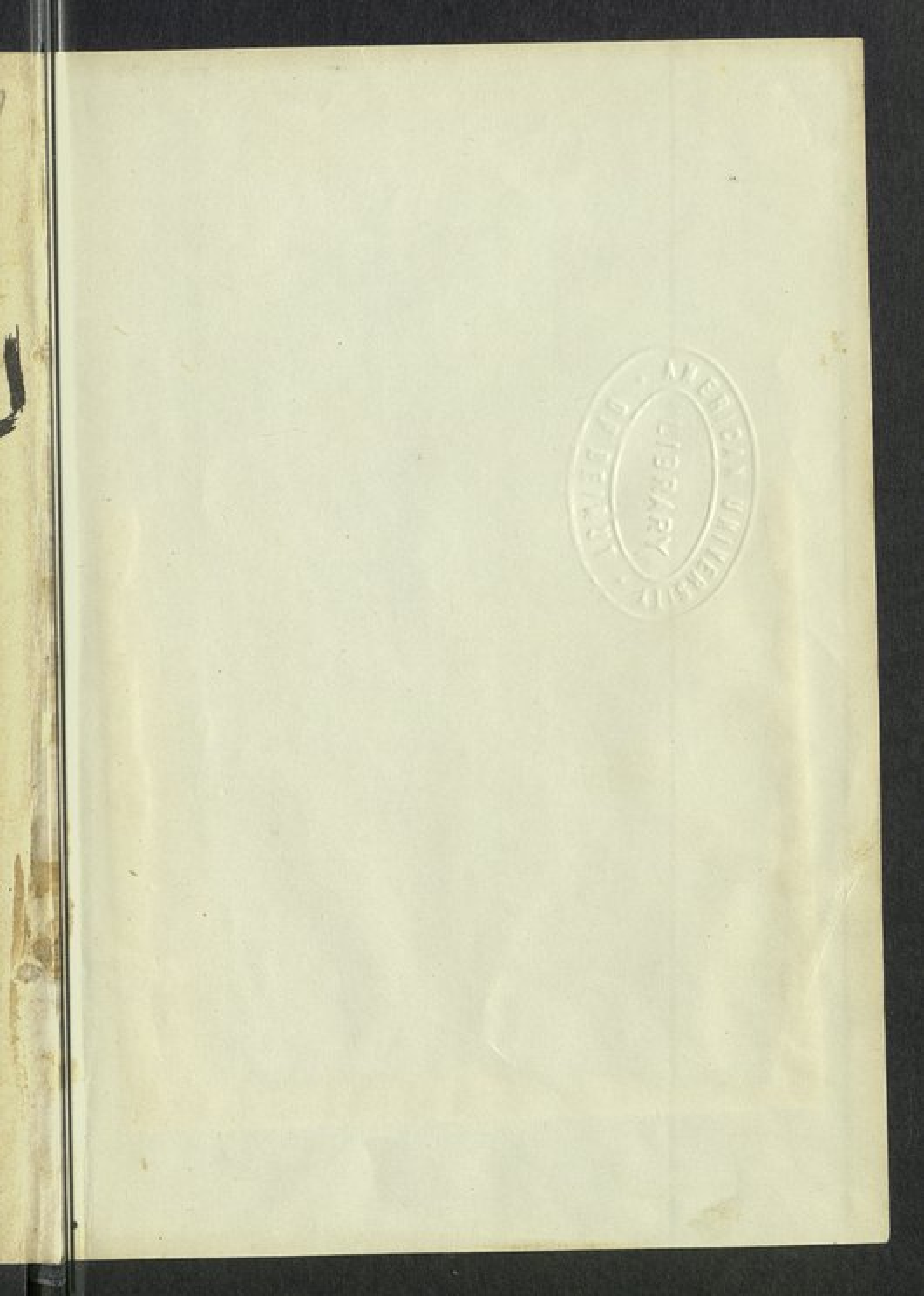



تجليد صالح الاقر
تلفون ٢٢٩٧٧





الياس مقدسي الياس

ليته لم يعد!.

مجموعة قصص

قدم له الكاتب الكبير
سعيد تقي الدين

منشورات
دار الصراع الفكري

تصميم الغلاف
للفنان
عادل قيصر يونس

رسم الفنان
عون ممتاز

تقدمة
الى الاديب الكبير، والشاعر المبدع
الاستاذ البير اديب
صاحب ورئيس تحرير مجلة الاديب الغراء
مع خالص تقديري واعجابي

بيروت في ١٩/٦/٥٥
المؤلف

مقدمة

بقلم سعيد تقي الدين

حين انت تطوّف بيت « القصة » فتجد الياس مقدسي الياس، صاحب هذه المجموعة، من ساكنيه .. لا تسله كيف وصل الى هناك . انه لم يثب اليه من النافذة، ولم يتسلل عبر الباب، ولم يخلعه، لقد هدم حيطان البيت الاربعة، ودخل !...

وذلك لا يضيره، لمَ يدخل الناس البيوت من ابوابها ان كان في وسعهم ان يقحموا حيطانها ؟

هذا الفتى عتليت جسد، وجبار روح، انه قطار مسرع على غير شريط، نفسه كلها وقود، هو يريد مستعجلاً ان يبني، فيتناول من ادوات الحياة كل ما تقع عليه يداه، هنا قبضة حصى، وهنا حجر منحوت، وهذا كميون يفرغ حمولة رمل، وهذه قطعة من حائط فسيفساء، وهذا دولاب كاوتشوك عتيق . انظر اليه يصب فوق كل هذا ماء انتشله من بئر، وعرقاً ينضب من جبينه،

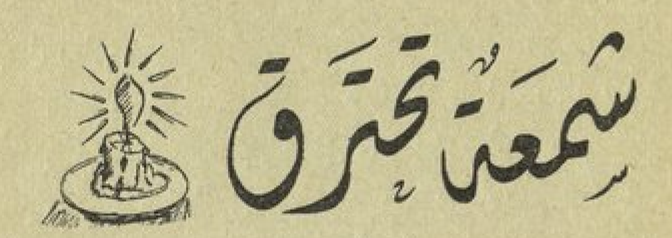
فيجبل ويشيد ، وفيما هو يفعل كل ذلك قد يباغته مفتش البلدية يريد ان يمنعه من البناء او يرتد به عن الشارع . قد يصغي اليه صاحبنا وقد يناقشه وقد يشاتمه ولكن البناء مستمر .

الحيوية الزخارة الزحافة هي شيء ينتزع الاحترام . وهي جوهر النجاح في كل نشاط ، وهي في الياس مقدسي الياس عامرة تخلق وتؤلف وتجمع وتكدس ...

وان كانت هذه مزية الكتّاب الكبرى ، فان لها مزايا ثانية ، في اشخاص قصصه ، وفي حوادثها اصالة مقنعة ، هذا فتى ضعفه في قوته ، فان شدة مراسه تشيع فيه من الاعتداد ما يردعه عن اللجوء الى كياسة الصناعة ومهارة الفن . ولكن له من القدرة والخشونة والاصالة — وهذه شيء اساسي — ما يجعل انتاجه شيئاً ذا قيمة .

وفي هذا الكتاب (ليته لم يعـــد) مأثرة الصدق فمؤلفه لا يكذب ولا يزيف ... كما وفيه آثار تبشر بأن صاحبه هو في الطريق الذي يوصل به الى الابداع ...

لا اعرف في ما تصدره المطابع اليوم كم كتاباً يستحق ان نقيم له المهرجان ، على كثرة ما يقام من مهرجانات ، ولكن لمثل هذا الكتاب يقرع الناقوس — اكثر من مرة واحدة ...



الحقيقة التي يجب ان تعلن هي انني بقيت في حيرة بما سأطلقه على هذه السطور من نعت، فلا اكاد استقر على واحد حتى استبدله بآخر ، فظلت معلقة بين « المقدمة » ، والاهداء» ، وصورة تضحية ونضال» ، وقد يدل عنوانها على انها قصة اجتماعية ، واصارح القارىء ان هي الا سوانح نفسي ، وجزء من ذكرياتي العابقـة تارة بالابتسامات ، واخرى بالدموع المضمخة بسفر حياة وجودي ... انها بعض حياتي ، واثمن ما في كينونتي ...

سألني احدهم ذات يوم : هل كان للمرأة اثر في حياتك ؟ .

اجبته : كل الاثر ...

اجل ان هذه السطور ما هي الا قصة تلك المواطنة العظيمة من بلادي التي حملت في صدرها كل ما في وطني من محبة خيرة ، وعطاء دافق ... انها حكاية شمعة كانت تحترق لتنير لي سواء السبيل كي لا تتعثر خطاي ، ولأرى الخير ، وألمس الحق ، فكانت كل شيء

في حياتي ، لانها اعطتني اكثر ما تملك من ضيائها ، اكثر ما تستطيع ان تهب من القيم والمثالية ، فكنت ارى بعينيها الكبيرتين الضاحكتين سماء بلادي ، وبابتسامتها التي لا تفارق ثغرها جمال وطني ...

كانت كلما سقطت امتدت يدها لاقالة عثرتي ، وكلما فشلت لقنتني كيف يجب ان انجح واشق لي في الحياة طريقاً جديدة ...

كانت تجوع لتطعمني ، وتشقى لتسعدني ، وتتألم لتفرحني ، وتطلب لنفسها الموت في سبيل حياتي ...

كانت نعم المرأة العظيمة ، وشعلة من الحنان ، وتجسيداً لما يجب ان تكون عليه النساء ، اذ ارتفعت بنبل عاطفتها الى مصاف الآلهة ، فما نمت مرة الا بين ذراعيها ، وهي تهدهد لي بصوتها المعذوذب النبرات ...

وما استيقظت كرة الا والفيتها الى جانب مهجعي تحدق بي بعينيها المتلألئتين حناناً ، وهي تسألني ان كنت اروم حاجة ؟.

... وتلك السنوات السبع التي قضيتها في المستشفى الانكليزي بدمشق وشبح الموت يرفرف فوق رأسي ويكاد لا يفارقني ، كانت من انعس سني حياتها ، اذ لم يعرف خلالها الكرى الى اجفانها من سبيل ... وكنت في بعض المرات اغافل الملاك وقد سرّي عني بعض الشيء ، وافتح عيني فألفيها راكعة تحت قدمي المصلوب ... تصلي كأنها لم تصل قبلاً ، ومن مقلتيها تنهمر الدموع كالسيل العرم بلا انقطاع ..

واخيراً نجوت بأعجوبة من شقي القبر ، وقهرت الموت بمعجزة ،

ولم تعد تستوعب ذاكرتي من اطياف تلك السنوات القواتم الا تلك المشاهد الخالدة من صلواتها وابتهالاتها . ومشهد آخر ظل عالقاً بذاكرتي ، محفوراً بأعماقي ، فحين خروجي من المستشفى شد الطبيب على يدي يقول : لقد نجوت من الموت بفضل هذه ... واشار نحوها ...

كان حصادي من تلك السنوات ان اصابني الهزال مدة، ولكن ما فتئت الصحة ان عاودتني، وما زالت ملازمتي حتى الآن .

اما حصادها هي ، فقد كان داء عضالاً اصابها .. بيد انها لم تكن لتعيره اهتماماً ، بل صبت جل همها عليّ ، وعلى صحتي ، ولا شيء غير ذلك ..

لا ، ليس هذا كل ما قدمته لي فاستحقت عليه الشكر والامتنان وانما هو جزء يسير من فضلها سردته باختصار ..

فقد كانت مدرستي الاولى ، واول من استأصل العجمة من لساني ... وعلمني الاحرف الهجائية ، وهذا ايضاً ليس كل شيء .

بعض الاصدقاء والمعارف يعتبرونني موهوباً في كتابة القصة والرواية وحجتهم في ذلك انهم قرأوا لي عشرات من رواياتي ، وبضع مئات من اقاصيصي وهي لما تزل بعد في طور المسودة..

وهنا لا اريد التحدث عن نفسي لأشبع نهم غروري وعنجهيتي ، وانما الحقيقة التي يجب ان تعلن دون زيادة او نقصان ، هي ان مجموعتي القصصية هذه (ليته لم يعد) ، ان هي الا الدفقة الاولى من ذلك السيل العرم ، وقطرة من ذلك الغيث الدافق المحبوس في ادراج مكتبتي في بلدة القامشلي .

فان كان حقاً ما ينعتني به هؤلاء الاصدقاء، فانني مدين بكل هذه الموهبة لها ، ولها وحدهـا ، فهي اول من حبّب الى نفسي القصة ، وهي اول من تلا على مسامعي الحكاية، فقد كانت محدثة لبقة، وذات نبرات تسيطر على المشاعر وتتلاعب باوتار القلوب..

كانت تبكي على مآسي ابطال حكاياتها، فتتسارع الدموع لتنهمر من مقلتي . وتضحك لنكات بعض اشخاص رواياتها ، فأستلقي على قفاي مقهقهاً ، وتمر الساعات وحكايتها لم تنته ، فلا اشعر كيف انقضى الوقت ، او مر الزمن .

واصبحنا اذا افترقنا لحظة احسسنا بشوق لايوصف... شوق الرضيع الى ذراعي امه .

وما قاربت مرةمشارف منزلنا الاوارتفع صوتي باسمها،فتطل عليّ من النافذة بابتسامتها المشرقة ، وتهرع لاستقبالي ... كما لو انها لم تَرني من دهر ، فألقي بنفسي بين ذراعيها ... وترتفـع طقطقة القبل ..

لقـــد كان حبنا لا مواربة فيه ولا خداع ، حباً لا يفقهه العشاق والمحبون ..

وكان كل املهـــا ان تراني رجلاً بكل معنى الكلمة ، رجلاً يستطيع ان يحيا بما يجنيه ، وحين تدرجت في مسالك الرجولة ، وكدت ان احقق امنيتها، كان قد استفحل بها داء الكبد... الداء الذي حصدته ... من تلك السنوات السبع القاتمات ...

واخيراً ... نضب زيت السراج... وهبت الرياح، فانطفأت الذبالة ، واسدل الستار عن آخر ومضة من شعاعها ، بعد ان

اوصلتني الى ما كانت تصبو اليه نفسها ... اجل لقد ذهبت ، اقول ذهبت ، ولا اقول ماتت لانها ما تزال تحيا معي !..

فنحن في كل لحظة معاً،وفي غدواتي وجيئاتي ورحلاتي ترافقني، وفي كل ليلة تتراءى لي بأحلامي ، بابتسامتها الصافية ،وعينيها الساحرتين ، اقص عليها ما اروم الاقدام عليه من مشاريع ، واشرح لها آمالي ، فتسدي لي النصح تارة ؛ وتشجعني على المضي قدماً تارة اخرى ..

وما ذكرت مرةيوم ارتحالها الا وتسارعت الدموع الى مقلتي، فقد كان المطر ينهمر يومئذ غزيراً ، غزيراً حين قضت ، وكنا في مدينة غريبة عن بلدتنا ، وبين اناس غرباء..وحين ذهبنا لتوديعها الوداع الاخير ، لم تكن الحفلة تتلاءم ومكانتها ، اذ كانت في اليوم الذي اعقب موتها ، وكان اليوم ماطراً ايضاً ...

كنا حفنة من اقرباء واصدقاء ورفقاء ،وسار موكبنا الصغير الحزين، وعلى قارعة الطريق يقف احد السابلة متفرجاً،ويلتفت الى صديق له قائلاً : من المؤكد انها جنازة امرأة تافهة ؟..

فيهز ذاك برأسه متمتماً : هذا ما اعتقده ...

وتخرق الكلمات صماخ اذني واحاول ان اصيح بهما : لا لم يصدق حدسكما ، فهي جنازة امرأة عظيمة ، ماتت في مدينة غريبة عن بلدتها ، وبين اناس ليسوا اهلها ..

غير ان الغصات قطعت نبرات صوتي ، والدموع تسارعت اكثر واكثر لتنهمر من مقلتي كالسيل الدافق ، فلا احسن الرد ، او احير او انبس ببنت شفة ، فأعود احدق بموكبنا الصغير

وبها ، وهما يختفيـــان رويداً رويداً من امام ناظري ، بابتعاد موكبنا وهو يقترب من المقبرة ، فارجع لنفسي اعزيها : غـــداً ستعرفان ايها الصعلوكان من تكون هذه التافهة ...

بيد انه على الرغم من انها كانت وما زالت كل شيء في حياتي اكاد في بعض المرات انساها!.. وذلك حين اكون في حالة نفسية قلقة مضطربة ، او عندما احس انني على ابواب فشل جديد ...

غير انه على الرغم من مرور ثلاثة اعوام على رحيلها ، فما ضحكت مرة او سعدت لحظة ، الا وتذكرتها ... فتختلط قهقهاتي بدموعي .. وابتساماتي بآلامي واحزاني .

ومنذ عامين اثنين قررت الزواج ، او قل هكذا حُكم عليّ ، وهكذا اراد الجميع ، جميع اهلي ؛ لاملاء الفراغ الذي احدثته في بيتنا ، وبعد ستة اشهر من البحث والتنقيب في كل من بيروت ودمشق وحلب وبعض قرى لبنان ، عدت الى بلدتي بخفي حنين ، اجر اذيال الخيبة والخسران ، ولم اخجل من ان اذيع وقتئذ من انني لم اجد ضالتي المنشودة ، فتحدث الناس ولغطوا ، وثرثر بعض اهلي ما طابت لهم الثرثرة ، وذهب الخيال بالجميع كل مذهب...

شيء واحد لم يكونوا ليدركوه هو انني كنت ابحث عن امرأة تضارعها في اخلاصها وتفانيها ، في رقتهـــا وعذوبتها ، في سموها ومناقبها ، في حنوها وحكمتها ، في تصرفها وبعد نظرها ، كنت ابحث عن امرأة مثلها ، ولذا كتب لمشروعي الفشل ...

لانها كانت امرأة ، ولا كل النساء ...

ابعد كل ذلك الحب وكل تلك التضحية والعطاء منهـا الا

يجدر بي ان اعيد لها البعض اليسير من فضلها ؟...

فقد درجت العادة على ان يجعل الكاتب اهداء شيء من نتاجه الفكري، او كتبه الى اناس يعتز بهم ويفتخر، او لا يحق لي ان اجعل اهداء باكورة انتاجي القصصي لها، ولها وحدها ؟..

هذا وقد آليت على نفسي منذ ان وعيت الحياة، وادركت فضلها عليّ، تسديد اكثر ما يمكنني تسديده مما لها عليّ..

فعساي ان اسدد بقروشي الزهيدة هذه جزءاً يسيراً من ملايينها الذهبية...

اذن فاهدائي...

الى ذلك الضريح البسيط الشبه مهجور في احدى مقابر حلب..

والذي يضم جثمان امرأة عظيمة استعبت في حناياها كل مـــا في بلادي من محبة وعطاء...

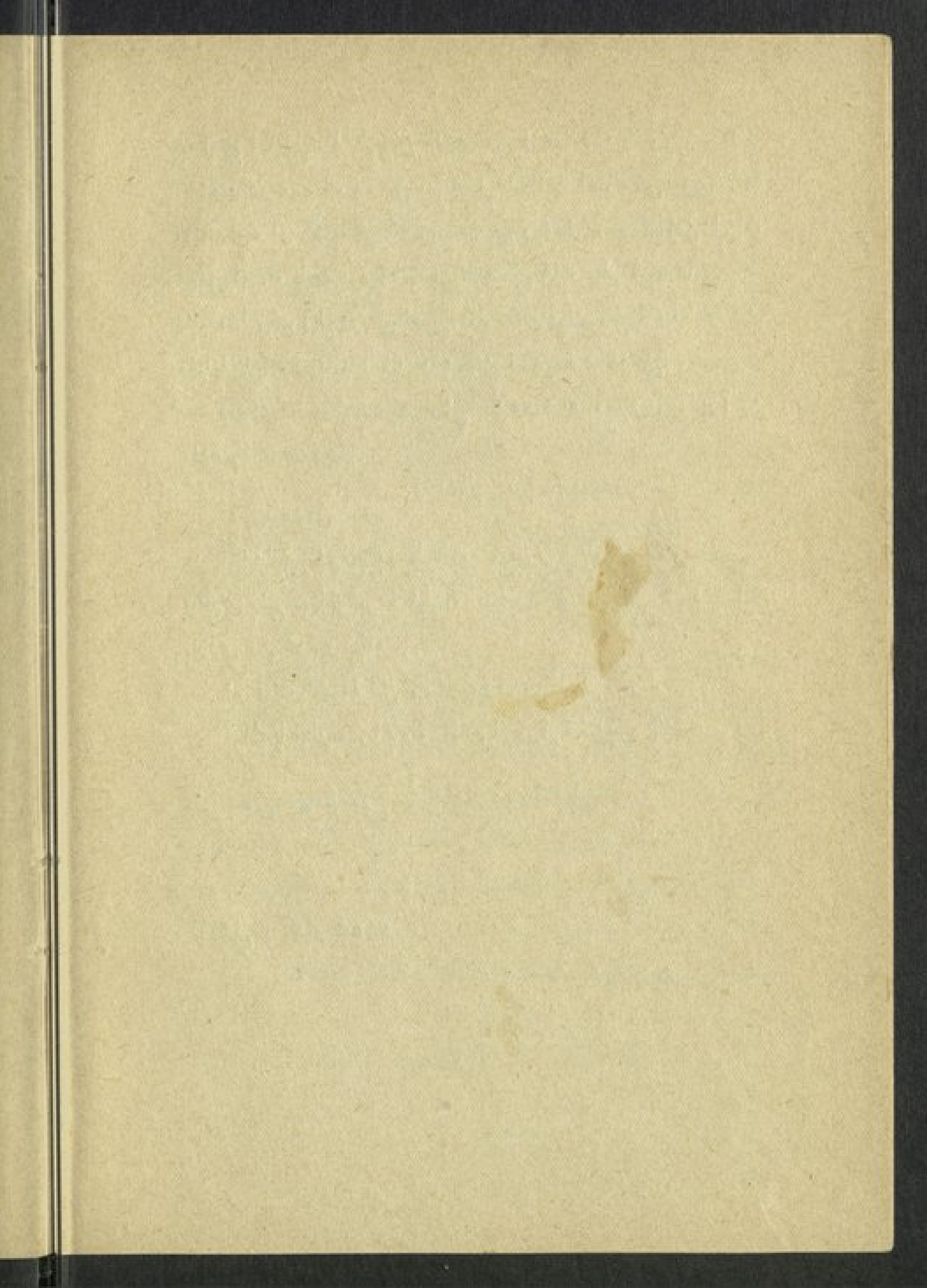
الى تلك الشمعة التي كانت تحترق من اجلي...

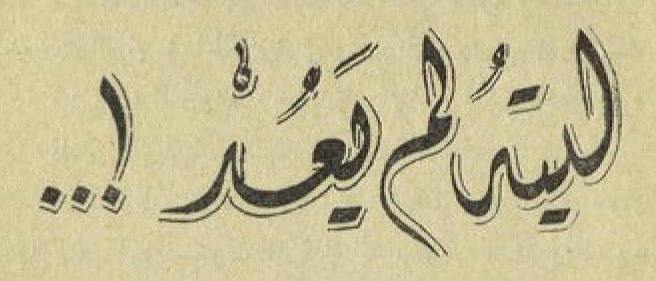
اليك يا مدرستي الاولى اقدم اولى ثمرة نتاجي القصصي...

الى روح امي... ارفع هذا الجهد...

قامشلي ١ آذار ١٩٥٥

الياس مقدسي الياس





كلما نبح كلب ، اشرأبت اعناقنا ، وتسمرت نظراتنا ، بقلق مستفز بالنافذة المطلة على الدهليز بداخلنا انه هو ... لقد عاد ...

... وما ان يطرق سمعنا وقع اقدام تقطع الدهليز جيئة او ذهوبا ، حتى يقفز احد الصغار يطرف ببصره محملقاً في صاحب الاقدام ، حتى اذا هدأت بولوجها احد البيوت ، او اذا توارى صداها مبتعدة ، ارتسمت على وجهه علائم الخيبة والامتعاض ، وتمتم بصوت حزين هو للبكاء اقرب : لم يكن هو يا اماه ...

اخذ النعاس يداعب اجفان الصغار ، ويعقدها باصابعه اللدنة يهبها لسحره المجنح والساعة تعلن الحادية عشرة ليلا ، فسبق الصغير (عفيف) اخويه الى فراشه بعد ان قطعت الوعود له ، بأنني ساوقظه حال عودته .

دقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة عندما اندس (خالد)

في الفراش الى جانب شقيقه الصغير (عفيف) فبقيت وكبيرهم سمير ننتظر اوبته بقلق ...

واشارت الساعة الى النصف بعد الثانية عشرة ، عندما قطعت الصمت الرائن على الحجرة بقولي : سمير قم يا ولدي الى فراشك..
فهز رأسه نفياً،ونفروهو يقول: كلا لن اذهب بل سأنتظره..
قلت : عله لن يعود ...

فطفرت دمعتان كبيرتان بين اهدابه وهو يقول باصرار : اجل ... اجل سيعود، لقد قال انه سيعود... لقد وعد، وقلبي ايضاً ينبئني بعودته ...

فاغرورقت عيناي بالدموع ، وانا المس هذا الايمان من سمير بصدق وعود والده ، فحبست دموعي وانا اقول محاولة التخفيف من حدة حزنه : قد يعود يا ولدي ، ولكن حري بك ان تذهب الى فراشك لتهب قسطا من الراحة لجسدك المنهوك .

فأحس بأنني احاول تعزيته بقولي هذا فانهمرت دموعه ، ولم يحر جواباً ، بل ظل في مكانه يكفكف دمعه ويحدق بالدهليز من خلال النافذة ...

اعلنت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، وسمير بجانبي لما يزل ينتظر اوبة والده فبادرته بقولي : قم يا ولدي الى سريرك اني اخشى عليك من السهر وقد سطا عليك السهاد الاكول بكلكله الثقيل .

... تلكأ كثيراً وتردد أكثر ، حتى استقر رأيه بعد الحاح ، فذهب واندس في السرير الى جانب اخويه ، وما هي إلا هنيهة ،

حتى استسلم لنوم عميق كنوم اهل الكهف . في حين ظللت في جلستي تلك الى جانب النافذة، سادرة ساهية، مشتتة الفكر، مستطارة اللب ، احصي دقات الساعة، واقاوم جاهدة هجمات النعاس ، تارة ينتصر ، واخرى اهزمه منتصرة، متنبهة كلما علا نباح الكلاب في مدخل الدهليز ..

جاوزت الساعة الثانية ولم يعد ، تباً له كيف نكث بوعده ، لقد قال انه سيعود... واقسم لاخيه انيس على ذلك عندما التقيا صباح اليوم وتجاذبا اطراف الحديث ... سيهجر الليلة عشيقته العابثة لوريس تلك الراقصة اللعوب ... ويعود اليّ ...

لقد مضى ستة اشهر على هجرانه لي ، ستة اشهر كاملة لم يحاول خلالها ولو مرة واحدة ان يأتي لزيارة اولاده الابرياء ، فلذات كبده ، لقد هجرنا دون اي ذنب اقترفناه او جرم ارتكبناه ..

هجرني ... رغم انني احببته من كل قلبي ، ومن اعماقي ، وكنت اسهر عليه سهر الام على رضيعها ووهبته اكثر ما تستطيع زوجة وفية ان تهب زوجها من السعادة والهناء ، وكان بدوره زوجاً مثالياً ، بحيث اصبحت حياتنا الزوجية مضرب المثل في الحي ...

ولكن ، انى للقدر الساخر ان يقف مكتوف اليدين حيال سعادتنا ، اذ قذف بغانية عابثة في طريقه ، كانت حسناء في العقد الثاني من عمرها ، تتقن ضروب الغرام وبيع اللذة المحرمة ، ولا غرو ... فهي من فراشات الليل وصائدات الرجال ، تعمل في احدى الصالات ، وسرعان ما اغوته ، فاذا به يصبح عبداً

طيعاً لها يأتمر بامرها ، ومنذ ذلك الحين انقلبت حياتنا العائلية رأساً على عقب ، اذ تحول من حمل وديع ، الى رجل فظ شرس الطباع ، واخذ يختلف الى الصالة ، يقضي جانباً من ليله بقربها ، ويعود ثملاً بعد منتصف الليل . ويوم سألته عن سر تأخره ثار في وجهي ، ولطمني وكانت اول لطمة انالها منه في حياتي ، ثم مضى يتوعدني ويعنفني اذا أناعدت ثانية للتدخل في شؤونه الخاصة ..

تكرر تأخره ، وتعددت المشاحنات والمشاجرات ؛ وذات ليلة عاد والفجر يكاد يلوح ، وكان مخموراً قد تعتعه السكر فلا يستطيع الوقوف على قدميه ، وفيما اسأله العودة الى محجة العقل والصواب ، ونبذ هذه الطريق الوعرة ، غضب وهاج وارغى وازبد وصب عليّ جام غضبه ، وانهال عليّ لطماً وركلاً وقذف في وجهي حمم كلمات مزقت صماخ اذني . فاحسست بالارض تميد تحت قدمي ، ثم راح يهبط الدرج وهو ما انفك يقذفني بشتائمه . وعاد من حيث اتى دون ان يعير اي اهتمام لاطفاله ، الذين ارتفع بكاؤهم ونحيبهم فضممت صغاري الى صدري نبكي وننتحب معاً ، وكانت اذناي ترددان صدى كلماته الاخيرة :

لن تري وجهي بعد الآن ... لاني لم اعد استطيع الحياة الى جانبك !.. لم اعد احسن الاستمرار في هذا الجحيم المستعر الاوار !..

وكان ذلك آخر عهدي به ، فقد اصبحت لوريس كل شيء في حياته ، بحيث اهمل اعماله ، ونسي اقدس واجباته العائلية ...

وما هي الا ايام قلائل حتى بلغني انه جريح في احدى المستشفيات، اذ انه اشترك وعشيق لوريس السابق (محمود) في معركة خرج منها وفي جسمه رضوض وجروح، فنقل على الاثر الى المستشفى واوقف العشيق !..

وجاء انيس ينبئني بان منيراً يرغب في رؤيتي ورؤية الاولاد، فرفضت الذهاب اليه ومواجهته بعد ما حدث بيننا، وظل بي انيس يلح ويقنعني، حتى انصعت اخيراً وذهبت برفقة الصغار، وما ان رآنا واحاط الاطفال به وانهالوا عليه لثماً وتقبيلاً، حتى اغرورقت عيناه بالدموع، ووعدني يومئذ واكد لاولاده، انه سيعود الى المنزل عند خروجه من المستشفى... سيعود كالماضي يرعاهم بعطفه وحنانه.

وبعد اسبوع عاودناه، وكانت صدمة اقوى من ان تتحملها اعصابنا، لقد نكث بوعده وذهب الى عشيقته ليقضي لديها فترة النقاهة، حيث خلا لهما الجو بعد ان حكمت المحكمة على محمود بالسجن مدة ستة اشهر.

وذهبت اليها اطلبه منها واتوسل ان تدعه لي، فأشاحت بوجهها عني، وانكرني هو !.. فطردتني واطفالي شر طردة...

وذات يوم التقى بولديه خالد وسمير فحاول التهرب منهما، بيد انهما لاحقاه، وانبريا يرجوانه ان يعود اليهما... فقال انه سيعود ذات يوم...

بيد انه لم يعد !..

حتى كان صباح اليوم، اذ تعمد شقيقه انيس المرور من امام

حانوته ، فاستوقفه وراح يسأله عنا ، ثم قال منير انه سيترك الليلة عشيقته لوريس وشأنها ، سيطهر نفسه من اوشابها ويرجع في هذه الليلة ذاتها ...

... وجل ما اخشاه ان ينكث بوعده ، شأن عادته .

ورنوت احدق بعقربي الساعة بعيني المثقلتين ،فاذا هما يشيران الى الثالثة صباحاً ، ورغم ذلك ظللت في جلستي تلك انتظر اوبته، فقد كان شعور مبهم يداخلني بأنه لا بد من ان يعود ...

اخذتني سنة من النعاس حين كان الليل يهم بان يطوي اذياله والفجر يكاد ان يلوح . واجفلت من نباح الكلاب ، التي اختلط نباحها بدقات الساعة الاربع بعد منتصف الليـل. فرحت ارهف السمع ... فقد كان هناك صوت لوقع اقـدام رتيبة وئيدة ، باهتة الاصداء ، تقطع الدهليز ، تدنو وتدنو ببطء، كأنها خطوات شيخ في العقد الثامن من عمره ...

وعلى ضوء مصباح الدهليز الخافت تبينته او كدت ، لقد كان هو !.. اجل ، هو زوجي العزيز منير !.. منير ذاته!..لقدعاد!.

وإذا بالدموع تتسارع الى مقلتي ... قم سمير ، خالد ،عفيف، لقد عاد والدكم ... هيا انهضوا استفيقوا ..

ولكن ... ما للكلمات لا تطاوعني فتظل حبيسة لا اقوى على تصعيدها ؟

ولكن لا ، لن اوقظهم ، ليبقوا نياماً حتى الصباح ...

وبحذر وتؤدةهبطت الدرج الى الطابق الارضي...وضغطت على زر التيار الكهربائي ، فامتلأت الردهـة والممشى بفيض من

نور ، واسرعت اعالج رتاج الباب الخارجي ، وفتحته له على مصراعيه ، وحدقت به ...

كان لا يزال يسير مقترباً بخطواته الرتيبة الوئيدة ، وها هو ذا امامي وجهاً لوجه ...

... ولكن ، علامَ انت هكذا يا منير اصفر الوجه شاحب اللون مشعث الشعر ؟.. لمَ انت يا زوجي العزيز ساهي النظرات ، وعيناك غائرتان في محجريهما ، وجبينك ينضح بالعرق البارد ؟

لماذا لم تلق يا حبيبي حتى التحية ، تحية الصباح ؟... وشفتاك علامَ هما جامدتان باردتان كأنهما ذوب الثلج ؟

اواه لقد عدت ثانية يا زوجي العزيز ...

وعدت انهال عليه تقبيلاً . اما هو فلم يحر جواباً ، بل ظل في مكانه على عتبة الباب يحدق بي بنظرات بلهاء غريبة ولا ينبس ببنت شفة ، وكانت غضاريف انفه تعلو وتهبط من اضطراب انفاسه التي لفحت وجهي ، واذا بالدموع تملأ مقلتيه !

اتبكي يا منير ؟.. واي داع للعبرات ؟.. لقد غفرت ، غفرت لك كل اساءاتك ، وعفوت عن كل ما اجرمته بحقي وحق الصغار .

وتحركت شفتاه وهمس قائـلاً : شكراً ... شكراً ... واجهد نفسه على النطق ، وأردف متمتماً : اريد ان ارى الاولاد ... اريد ان اراهم قبل ان ارحل !.. قبل ..

فقفزت كمن لسعتها افعى رقطاء وقاطعته بلجاجة : ترحل ؟!.. ولكن ، الم تقل انك ستعود ... وتبقى بجانبنا الى الابد ؟.. ورحت احملق به منتظرة رده ، فاذا بوجهه قد ازداد شحوباً ..

كأنه شمعه تذوب تدريجياً ، واجاب بتوسل : اريد ان اری الاولاد قبل ان ارحل !.. اريد ان اراهم !..

ولكن ؟..

وانهمرت الدموع من مقلتي غزيرة... وتمالكت نفسي لاسأله والغصات تقطع نبرات صوتي: انهم نيام... اولا تصعدلتراهم ؟..

اجاب : ليس بامكاني !.. ليس بمقدوري !..

ولكن يا زوجي العزيز ، لم تطأ قدماك بعد عتبة البيت ، اجئت بعد طول انتظار ولهفة تعلن رحيلك ؟..

وهمس قائلا وقد ازداد صوته خفوتاً : قلتُ لكِ اريد ان اراهم قبل ان ارحل !..

ليكن ما تريد ...

وكفكفت دموعي وانا اصيح بهم باعلى صوتي : سمير .. خالد ... عفيف ... هيا انهضوا ، انزلوا ... تعالوا .. لقد عاد والدكم ...

وهتفت بهم مثنى وثلاث ، وما صمتت الا حين سمعت صوت وقع اقدام سمير وهو يقفز من سريره على ارض الحجرة ويحاول ان يوقظ اخويه ...

وعدت انظر اليه وانا اقول باكية: الآن سيهبطون الدرج .. انهم في سبيلهم اليك ...

غير انه كان قد ازداد شحوباً ، وكانت ركبتاه ترجفان كأنهما قصبتان في مهب الريح ، لا تقويان على حمله ، وبحركة لاشعورية رميت ببصري الى قدميه ، فعتبة الباب ،وجحظت عيناي

وكبرتا في محجريها ،فيا لهول ما رأيت!.. فقد اشرقت علي الحقيقة الرهيبة ، ثم تتبعت بصري حتى مدخل الدهليز ، فقد كان يمتد في اثره خطان وفيعان طويلان من الدماء!.. ليستقرا بين قدميه على عتبة الباب ، بركة من النجيع!..

فظلت في مكاني كتمثال قدّ من حجر ...

في حين كانت الدموع تسيل مـــن مقلتي دون انقطاع .. وامسكت به كيلا يسقط على الارض وتحركت شفتاي ، واردت ان اسأله مستوضحة ،بيد ان صراخ الاطفال ارتفع في ذلك الاثناء وهم يهبطون الدرج فرحين جذلين ...

وفيما انا اسانده ، لامست اناملي سائلاً حاراً يتدفق من جرح عميق في ظهره!.. ونظرت اليها فاذا هي مخضبة بالدمـــاء!.. فندت عني صرخة داوية مزقت سكون الليل وانا اهتف باكية ملتاعة : الي ... الي ...

ونظر الي منير، وتمتم بعد جهد قائلاً : لقد ، دفعت ثمن طيشي وتهوري ... ثمن جريمتي النكراء في حقكم .. اذ قتلني محمود!..

وكان اول من هبط الدرج فرحاً جذلاً من اولادنا سمير .. وبادرني قائلاً : او لم اقل لك يا اماه انه سيعود ... لقـد وفى بوعده فعاد ...

ونظرت اليه من خلال عيني المخضبتين بالدموع ولم اقل شيئاً او احر جواباً ،في حين ابتسم والده ابتسامة باهتة المعالم ، ولحق سميراً اخواه واحاطوا بوالدهم من كل صوب وحـــدب ، وهم يرقصون جذلاً ...

وخار ما تبقى من قوى منير فسقط على الأرض ، فذعر الصغار لهذه البادرة غير المنتظرة من والدهم، وتقلصت ابتساماتهم العريضة ، وتحولت الى نظرات دهشة يشوبها الاستغراب ، ثم رفع منير راسه بصعوبة ، وحدق بالصغار والدموع تسيـل من مقلتيه ، وعاد فابتسم لهم ، واجهد نفسه ليرفع ذراعيه ليضمهم الى صدره ... ولكن قواه كانت قد تلاشت ، فتحركت شفتاه واراد ان يقول شيئا ، الا ان الكلمات اختنقت بحشرجة الموت ، ثم انتفض انتفاضة واهنة ، واطبق جفنيه ، وهدأ واستكان فيه كل شيء حتى انفاسه ...

بيد ان ابتسامته ما زالت مرتسمة على شفتيه ...

وهتفت به بكل ما فيّ من قوة : منير منير ...

ولكنه لم يجب ، فقد كان كل شيء قد انتهى !.. ومات !..

وانفجر الصغار باكين ناحبين مرددين : بابا بابا ...

والتفتوا حولي مذعورين ..

ونظر اليّ سمير بعينيه المخضبتين بالدموع وهو يسألني باكياً : هل مات ابي يا اماه ؟!..

فهززت رأسيْ بالايجاب ،فأحاطوا بجثة والدهم الهامدة ، وانطلق بكاؤهم عاصفة عاتية تمزق سكون الليل العميق ، فضممتهم الى صدري ، ونظرت الى سمير وغمغمت وانا احاول جهد استطاعي السيطرة على الغصات التي تقطع نبرات صوتي قائلة : اجل .. اجل لقد بر بوعده فعاد يا بني ، ولكن ليته لم يعد !.. فقد عاد قتيلاً !..

مريضان !..

... تسألني لماذا انا متشنج الاعصاب، ثائر؟.. لم انا حاقد بهذا القدر على نظامنا الاجتماعي الفاسد ؟.. وحانق لعدم وجود تصميم اقتصادي شامل ؟.. لك ان تستغرب يا عبد العزيز.. لك ان ترميني بكل نعوت الهوس والجنون ، اما انا فسأظل ثائراً ، ساصليها منذ اليوم حرباً شعواء ضد هذه الانظمة المهلهلة البالية ، سأظل كذلك حتى تتحقق في البلاد عدالة اجتماعية مثلى...

انا اعلم كم هو خطر علي اذا ناديت بهذه الافكار الثورية... ورغم ذلك، فلا.. لا تحاول ان تقلعني عن المناداة بها لأنه واجب مقدس..

لقد اثرت فضولك يا عبد العزيز ، اذن فمن واجبي ان اكشف لك السر عن لغز ثورتي هذه المستعرة الاوار غير المنتظرة ...

كان ذلك في الصباح .. صباح اليوم بالذات حين ولج عيادتي شيخ عجوز وزوجه وهما يتلكآن في سيرهما ، وانفاسهما تتراكض

في صدريهما مما يدل على المسافة الشاسعة التي قطعاها سيراً ، وانبريا يشرحان لي قصتهما .. لا بل قل مأساتهما واللهاث يقطع نبرات صوتيهما ، والدموع تطفر من عيني العجوز المسكينة لتسيل بين اخاديد وجهها المتجعد وهي تحاول عبثاً حبسها :

ان ولدهما الوحيد يعاني سكرات الموت .

وسألت الشيخ عبد الرؤوف : واين تسكنون ؟.

فتمتم يقول : في حي « قبر عاتكه » ...

ان الطريق طويلة ، والمسافة شاسعة جداً بين عيادتي والحي المذكور . واطرقت ساهماً افكر اذ لم يكن بي حاجة ان اسألهما ثمن اتعابي ، او حتى اطلب اليهما ان يوقفا (تاكسي) ليقلني ، فقد كانت المزق التي يرتديانها خير دليل يفصح عن حالتهما المادية المدقعة ، وواجبي كطبيب ومواطن ان امد لهما يد المساعدة .

في حين ظلت نظراتهما متسمرة بي حيرى ، ودون ان انبس ببنت شفة ، جمعت ادواتي الطبية في حقيبتي اليدوية واستقللنا اول (تاكسي) مرّ بنا ، وانبرى الشيخ عبد الرؤوف يقص علي جانبا من حياته البائسة المعذبة ، وكيف انه يعمل خادماً لدى اسرة مثرية باجر قدره ستون ليرة في الشهر ، وكيف يسومه اسياده العذاب اصنافاً والواناً . ورغم ذلك فهو صابر على مضض لحاجته الملحة ...

وما ان توغلنا في حي «قبر عاتكة» حتى اشار الشيخ الى زقاق ضيق قائلا : في هذا الزقاق منزلنا . . . ولما تعذر على السيارة عبوره نقدت سائقها اجرته ورحت اسير مقتفيا اثرهما ، وهما

ما انفكا يدعوان لي بطول العمر ...

كان الزقاق ضيقاً ومظلماً لا تعرف الشمس طريقها اليه. والمنازل متصلة ببعضها بدهليز طويل معتم يقبض النفس. وكلما توغلنا في الزقاق، كان يخيل الي ان الليل يسرع في ارخاء سدوله. وكانت الرطوبة تنفذ الى عظامي، ورائحة العفونة تزكم انفي، ونحن لما نزل نغذ المسير ..

مناظر تقزز النفس، وروائح تزكم الانوف، وشيئاً فشيئاً احسست ان انفاسي تضيق في صدري، وانني اختنق تدريجياً، وقد اصابني الدوار، والغثيان بدأ يداعب احشائي، وخشيت ان انقيأ، او ان اقع مغمى علي قبل ان اصل الهدف. وتساءلت في سري، اذ لم يكن باستطاعتي عبور هــذا الدهليز كعابر سبيل: ترى كيف يعيش هؤلاء البؤساء وكيف يقضون فيه سحابة أيامهم ؟..

: هذا المنزل يا دكتور ...

وتنفست الصعداء ورنوت احدق الى حيث اشار الشيخ. انه لم يكن منزلاً بالمعنى الصحيح، انما كان قبراً كبقية قبور الدهليز ويداخل من يراه انه زريبة تأوي اليها البهــائم وليس مأوى يسكنه مواطنون !..

: تفضل يا دكتور .

وطأطأت برأسي وانا اعبر الباب الى فناء الدار الصغيرة، وكرة اخرى انحنت هامتي خشية ان يصطدم رأسي بسقف باب الكوخ... وما ان مست قدماي ارضه واجلت الطرف في ارجائه، حتى

ارتد بصري خائباً اذ اصطدم بالعتمة ، وعدت احملق من جديد في اركانه المظلمة . واسرعت العجوز تعالج كوة تحاول فتحها ، في حين اجفلت من قحة جافة ندت عن زاوية من الكوخ ارتجت لها جنباته ، ورحت اجهد نظري كي ارى صاحبها ...

واخيراً استطعت ان اراه بعد ان تعود ناظري على الظلمة ، وكانت ام العليل قد انتهت من فتح الكوة ..

.. كان العليل هيكلاً عظمياً ، لا تربطه بالحياة سوى حشاشة من روح ، اسمر البشرة ضاوي الوجه ، اصفر اللون ، ذا عينين سوداوين يتوسد فراشاً حشوه كما هو بادٍ من نتوئه وفجواته المهترئة بقايا ثيابهم واسمالهم ، ويلتحف بساطاً مهلهلاً . واجلت بصري وانا مازلت في مكاني كتمثال قدّ من حجر ، تارة نحو هذا المريض البائس ، وطوراً باطراف الكوخ الخالي من كل اسباب الحياة ، والتي تفوح من جنباته العفونة . وكادت تتمزق نياط قلبي حزناً واسى على هذه الاسرة البائسة ، واسرعت الدموع الى مقلتي ابكي هؤلاء الذين يدفنون وهم احياء !..

فظنت (امينة) والدة (سعيد) انني اروم العودة من حيث أتيت ، فانبرت تعتذر عن فقرهم وازعاجهم اياي بدعوتي هذه ، وكأنهم يجرمون بحقي ، وليس النظام الفاسد هو المجرم بحقهم !..

كان الهيكل الحي يرسلها بين الفينة والفينة أنة يزحزحها بصعوبة عن صدره الخائر المهدم ، ويعقبها بقحة جافة تهتز لها جنبات الكوخ ..

ودنوت منه وانا ما زلت صامتاً . وامتدت يدي تتحسس القفص العظمي ،وتحركت لاول مرة شفتاي ورحت اطرح اسئلتي على المريض ، فتنحنح في فراشه ، وهمس، فجاءني صوته كأنه آت من كهف سحيق الاغوار :

شعرت يا دكتور منذ عام تقريبا بثقل في صـــدري لم اعره انتباها بادىء الامر ...

وبترت عبارة سعيد سعلة جافة مستمرة انتهت ببصقة من لعاب احمر صبغت منديله القذر ، وتمالك انفاسه جاهداً واردف يتمتم :

ثم اخذت اسعل بهدوء سعلات خفيفة متقطعة ، بدأت تشتدمع الايام شيئاً فشيئاً !..

ومرة اخرى داهمه السعال.. وبعد برهة وجيزة زاد : وبدأت اشعر بالعرق البارد يتصبب من جسدي.. وعيناي بدأتا تدمعان رغماً عني وانا اسعل ... واحس بالدوار في رأسي ، وان معولاً يفتح في صدري غوراً ، وجدران نفسي كنت اسمعها تتهدم !..

وعادت فانتابته القحة الجافة التي كانت تنتهي حمراء في منديله واكمل بعد قليل : ثم علمت ،ويا لهول ما علمت!.. ان هذا السعال ليس بالسعال الديكي ، وانما هو .. داء السل !! وأيقنت ان الموت ينتظرني لا محالة بالمرصاد !..

واراد ان يتابع حديثه ولكن الكلمات اختنقت في حنجرته والدموع طفرت من مقلتيه ولم يعد بمقدوره الاسترسال، فأشرت عليه ان يخلد الى الصمت .

وانفجرت في فمه فبصقها دماً ، ثم صمت ، الا من القحـــة .

فانهمكت اهيىء له حقنة (ستربتوميسين) ..

في حين اكملت والدته تقول والدموع تسيـــل من مقلتيها دون انقطاع : فعرضناه على طبيب الحي فأشار الى انه مصدور ، فخشيت ان ينتهي كما انتهى الكثير من ابنـــاء الحي، وأردنا ان نحصل له على سرير في احد المستشفيات الحكومية وهي كثيرة . وعلى الرغم من كثرتها ، فقد ضاقت بوحيدي ، ولم يكن في حوزتنا المال لارساله الى المصحة في لبنان حيث اشار الطبيب ، فظـــل يصارع داءه والداء يصارعه حتى وصل الى ما هو عليه الآن ...

افاقت الام على صرير قفل حقيبتي وانا اغلقها بعد ان زرقت سعيداً بالمصل . ثم ناولت الوصفة الى الشيخ مع ورقة مالية من فئة الخمس والعشرين ليرة وانا اقول محاولاً الا اجرح شعوره : ارجو ان تقبلها على سبيل الدين ..

فانكب على يدي يحاول لثمهـا ، فسحبتها ، ثم التفت الى سعيد قائلاً : ستشفيك هذه الوصفة بعون الله ... وسأعاودك غداً ان شاء الله ...

وودعتهم وخرجت الى الزقاق ، فلحقني الاب يسألني عن حالة ولده ، فرحت امني نفسه بالآمال والاحلام الكاذبة ، التي كانت ستتحقق لو قيض الله لهم قلباً رؤوفاً يمدهم بالمال فيرسل سعيداً الى لبنان حيث يعود معافى ، ولكن من اين المـــال وهم على ما هم عليه من فقر وضنك؟.

وأخذت اوسع الخطى في الزقاق تلاحقني وتكاد تقطع انفاسي الرائحة النتنة الكريهة ، ويمطرني الاب البائس بأسئلته ...

***

اواه يا عبد العزيز عفوك !.. الشمس غربت والظلام انتشر ، فلا بأس من ان تتكرم وتضغط على زر الكهرباء فهو الى يسارك. اراك لا تحرك ساكناً ، هل اهتزت مشاعرك الانسانية بقصتي هذه؟.. مهلاً لم آت بعد الى بيت القصيد حيث سبب ثورتي المسعورة..

حين عدت الى عيادتي كان في انتظاري بعض المرضى، فشرعت بفحصهم ومداواتهم ، وانهمكت في عملي حتى نسيت او كدت ما حدث معي في « قبر عاتكة » ... ونبهني جرس الهاتف برنينه ، وجاءني من الطرف الثاني صوت نسائي عذب النبرات فيه رنة حزن قائلاً : عيادة الدكتورة محمد نصري ؟

اجبتها : اجل هنا عيادة الدكتور محمد نصري وهو ذاته يتحدث اليك .

قالت ، وقد ازدادت نبرات صوتها حزناً : هنا سوسو هانم ابنة احمد عساف باشا .

سألتها : هل من خدمة يا سوسو هانم ؟.

اجابت باكية : الحقني يا دكتور ... العزيز ... ف .. يـ .. ف ..يـ... يـ.. ن..ا .زع !..

وبترت الغصات عباراتها ، واختنق صوتها بالبكاء وارتفع نشيجها ، فقفزت كمن مسه سلك كهربائي وقلت بلجاجة : فريد ينازع ؟!. سأحضر حالاً ، ولكني لا اعرف عنوان المنزل يا سوسو هانم ..

اردفت تقول وهي تحاول جهدها السيطرة على غصاتها : ان عربتي ستصلك الآن ..

وبسرعة البرق اعددت ادواتي الطبية اللازمة ووضعتها في حقيبتي اليدوية ، ثم التفت وانا منقبض النفس منفعل الاسارير الى الزبائن ، واعتذرت منهم وانا اعدهم بانني سأعود بعد نصف ساعة. وخرجت الى الشارع انتظر السيارة ، وما هي الا هنيهة حتى اقبلت عربة «كاديلاك» فاخرة ووقفت امام باب العيادة ...

***

وفيما انا اغوص في مقعدها الاطلسي الوثير تنبهت الى فتى في الثانية عشرة من عمره تقلص على نفسه في ركن من السيارة ومسحة من الحزن تكسو محياه فقدم لي نفسه بانه جوجو بك شقيق سوسو هانم .

وفيما السيارة تنساب بخفة ورشاقة الافعوان على اسفلت شارع « ابي رمانة » شطر الهدف ، انبرى جوجو بك يتحدث عن شقيقته سوسو هانم ، وكيف انها تزوجت من احد المهاجرين العرب وسافرت وزوجها الى اميركا . ثم سرعان ما شب بينهما الخلاف ، وانتهيا الى الطلاق . وكيف ان فيفي ولد في اميركا ، وجلبته معها بالطائرة وهو لم يبلغ بعد عامه الثاني ! . غير انه منذ ان وطئت قدماه ارض سوريا وهو طريح الفراش ، على الرغم من انهم يدللونه كثيراً ويحبونه حتى العبادة .. وعلى الرغم من انهم هيأوا له كل اسباب الحياة المترفة الرافهة ...

خادم خاص يشرف على خدمته واخراجه كل صباح الى الحديقة وتهيئة حمام فاتر لتحميمه . وطباخة تهيء له اطايب الاطعمة التي يشير بها الطبيب ، كشرائح لحم الضان ، والزبدة ، والدجاج ، وانه

لم يعتد ان يشرب الا ماء (فيشي) ولبناً . وانه ينفق عليه كل شهر قرابة ثلاثمئة ليرة سورية ، ورغم كل هذا وذاك فهو يكاد لا يفارق الفراش ...

: لقد وصلنا يا دكتور .

انقطع جوجو بك عن حديثه حين قال السائق ذلك وهو يضغط على فرامل السيارة ..

كان الهدف فيلا فخمة ، لا بل قصراً منيفاً من قصور الف ليلة وليلة ، تحيط بهحديقة غنـاء ، فيها بحيرات اصطناعية ، وكل مظاهر البذخ والرفاهية . وتطلعت الى ذلك الصرح الشامخ الذي يلمع رخامه الابيض كاللآلي تحت وهج الشمس واشعتها العسجدية . . . حقاً لو لا انني دعيت لمداواة البيك الصغير فيفي لتهيبت من ان اقتحم هذا الفردوس ، ولخشيت ان انقل الخطى على تلك الطنافس الثمينة حيث غاصت قدماي في السجاد العجمي الفاخر .

ولو لم يتقدمني جوجو بك يدلني عـلى الدرب الذي يجب ان اسلكه ، والدرج الذي يجب ان اتسلقه ، لضعت بين تلك الممرات والرياش واللوحات الزيتية والتماثيل الفنية ..

بيد أن الصمت المهيمن على جوانب القصر ادخل الرعب الى اعماق نفسي وسرت في بدني قشعريرة باردة كتلك التي تسبق الحمى ..

حقاً ان البيك العزيز فيفي في حالة خطرة ، ولذا ران الصمت العميق على ارجاء القصر ، اذ لم اسمع ضحكاً او صراخاً ، ولا صخب راديو ، او صوتا نسائيا .. ولا عراك اطفال ، او نأمة انسان ..

هذه التأملات السريعة فارقتني حين همس جوجو بيك : هذه هي غرفة فيفي ..

وبحذر وتؤدة ولجنا الغرفة التي يرين على ارجائها السكون . وكانت سوسو هانم في انتظاري على احر من الجمر ، فقدمت لي نفسها ، ورحت احدجها من طرف خفي بنظرة اعجاب ، فقد كانت جميلة فتانة ذات قد مياس سمهري وانوثة ثائرة وعينين كلها عذوبة وفتنة ، وقد ضاعفت ومضة الحزن جاذبيتها ، وقدمتني الى زميلين كانا قد سبقاني حسب دعوتها :

الدكتور فؤاد ابو رعد طبيب الاسرة الخاص ، والدكتور جاك شماس الطبيب .. ال...

وحدجت الدكتور جاك شماس بنظرة تساؤل كمن يقول : ما شأنه هنا ؟.

فاشارت سوسو هانم الى سرير العليل وامتدت اناملها تزيح عنه اللحاف وتنكب لتطبع على وجهه قبلة ...

وفجأة بانت لي الحقيقة التي سمرتني في مكاني كتمثال مرمري ، وداخلني انهم ارادوا بدعوتي هذه السخرية مني فثرت لكرامتي واستشطت غيظاً وانا احس بالدماء تغلي معربدة في شراييني كحمم بركان ثائر . وكاد ينفجر مرجل غضبي ، واردت ان اقذف في وجوههم قوارص كلماتي . بيد انني حلت بيني وبين غضبي كي لا يطفيء مصباح عقلي فيشل تفكيري ، ويتساوى فيّ العقل والجنون ، فلا احس ما انا مقدم عليه في ساعة هوس ...

وانتظرت ان ينفجروا ضاحكين للمقلب الذي ساقوني اليه ،

غير انهم ظلوا ساكتين واجمين ينظرون بقلق الى انفعالات وجهي المطلة مـــن عيني والمقروءة في ملامحي ، وبحركة عجلى تناولت حقيبتي لاعود ادراجي وانا ازمجر بغضب : ولكن يا سوسو هانم انا لست طبيب الـ ...

فقاطعتني مترددة : اعرف ذلـك يا دكتور ولكن يجب ان تتعاون معهما وستنال اجرتك كاملة ، لا بل وزيادة ، سأدفع لك خمساً وعشرين ليرة.. خمسين !. سأدفع لك المبلغ الذي تريده !.

ولم اتمالك اعصابي ،فأبعدتها وجوجو بك من طريقي وخرجت كالسهم من الغرفة ، وهبطت الدرج بسرعة ، ولم اجد نفسي الا وانا في ممر الحديقة المؤدي الى الباب الخارجي ..

وأفقت من ثورة غضبي على صوت أجش ليس بالغريب عني يهتف بي: دكتور محمد نصري ..

فالتفت لأرى الهاتف ، اواه لقد كان الشيخ عبد الرؤوف والد سعيد !.. وما ان اصطدم ناظراي بـــه حتى استحالت ثورتي المتأججـــة الى ذوب الثلج .. وأراد ان يقول شيئاً لولا وجود الباشا الذي زجره بنظرة ، ولو ان النظرات تقتل لأردته قتيلاً . وطلب اليه ان يغرب عن وجهـــه وان لا يعترض ثانية طريق زوار القصر ، وتحرك ليهرول مسرعاً ، ولكن صرخة مني اوقفته ،ودنوت منه دون ان اعير غضب الباشا اهتمامي وسألته : هل ابتعت يا عم عبد الرؤوف الدواء وزاولت ارشاداتي ؟

فأجابني متلعثماً : كلا يا دكتور ، فما زالت الوصفة والمال في حوزتي لكثرة الاعمال في القصر ، ولا ...

وبتر عبارته وهو يحدق بخوف ووجل في الباشا . ثم تركني وهرول مسرعاً وفرائصـــه ترتعد فرقاً ، يشيعه الباشا بنظراته وشتائمه القذرة . . .

ودنا مني الباشا وهو يضاحكني قائلاً : من اين تعرف هـذا الكلب يا دكتور ؟!

ـ هذا الكلب ؟!

قذفتها شفتاي بثورة ونقمة ، وضممت قبضتي اريد ان ألكمه بها لكمة تخرسه الى الابد وتعيده الى محجـة العقل ، لولا سوسو هانم التي قفزت في وجهي فجـأة ، وعادت تلح عليّ لأعود لمعالجة فيفي ، فانضم اليها والدها الباشا وأمرني ان اعود ، بيد انني لم اصغ اليهما ، ولم أعر اذناً صاغيـــة لشتائمهما ، وانما اوقفت اول تاكسي مر بي والقيت بنفسي في داخله . . .

وفيما انا غائص بمقعـــد السيارة شطر العيادة شعرت بأن الحقد والغضب يغليان في اعماق قلبي كالمرجل ، وان ما في اعماقي من نقمة وثورة قد استحال الى بركان ثائر اود ان اطلقه حمماً ملتهبة ! . .

عفوك يا عبد العزيز أراك تكاد تنفجر غيظاً ! . . قلت لك تمهل ، وحتماً انك مردد ما قلته منذ برهة : ان بلادنا باتت بمسيس الحاجة الى تصميم اقتصادي شامل يضمن حياة كريمة عزيزة لجميع المواطنين .
هذا طبق ما تريد ان تقوله ؟

ولكن لا ، لم يصدق حدسي ، فاني اراك قد استشطت غيظاً من جديد وعيناك عادتا تقذفان حمماً ! . . اواه عرفت ان في مقلتيك سؤالاً تريد ان تسألنيه . . . تريد ان تسأل عن موطن الاستغراب

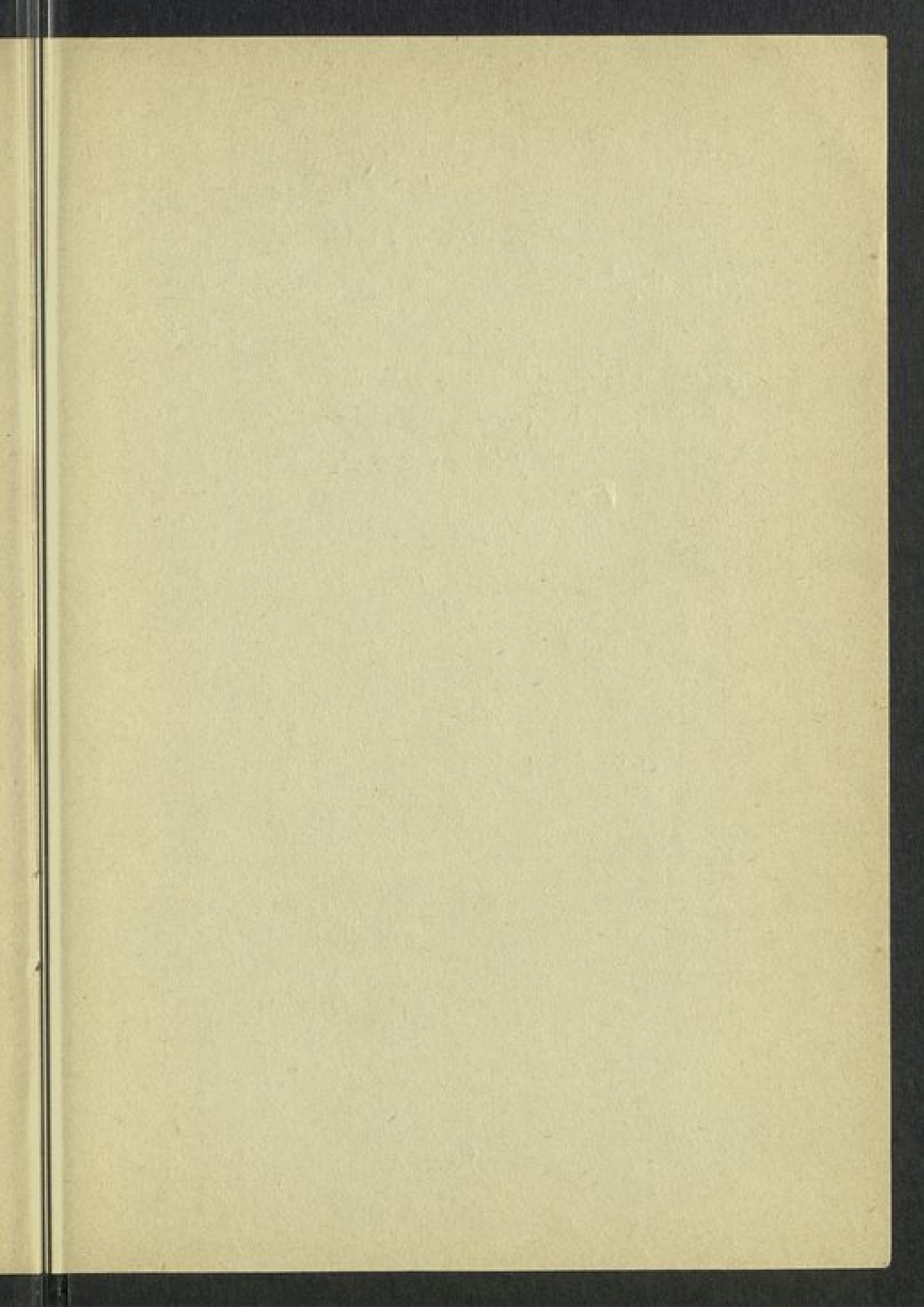
في قصتي هـذه التي سجنتك لسماعها اكثر من نصف ساعة ؟..
أليس كذلك بحق ربك ؟.

اجل .. اجل هذا ما تريد معرفته ..

ولكن قلت لك تمهل ، لا تكن لجوجاً .. فسأخبرك كل شيء بالتفصيل ..

فان الدكتور جاك شماس ليس الا طبيباً بيطريا !.. ومريضي الثاني «البيك الصغير فيفي» كما اعتقدته وسميته، لم يكن الا كلباً!..

.. اجل كلب من فصيلة « الشيان لو » !..



قصة من الوسط الفني

الثمن !..

القت الفتاة نظرة على المرآة الكبيرة المثبتة على جدار الغرفة ، تستطلع موطن الجمال في وجهها وجسدها ، ثم سرعان ما ارتسم على محياها ابتسامة المنتصر الظافر ، والتفتت الى والدتها تقول بلهجة يشوبها التحدي :

كيف لا يقبلونني يا اماه وانا املك كل هذه الثروة من الفتنة المفقودة لديهن جميعاً ، فاين هن مني ؟.. اين هن من وجهي المتناسق التقاطيع ، وشعري الفاحم ، وعيني الخضراوين الساحرتين ، وشفتي الحمراوين ، وعنقي المرمري ، وصدري الناهد ، وجسدي المياس السمهري ؟.. اجيبي اين هن مني ؟..

اما الام فلم تنبس ببنت شفة ، فاردفت الفتاة تزيد : والى جانب هذا كله فانا لما اتجاوز بعد عقدي الثاني ، كما وانني اجيد القراءة والكتابة !. تكلمي يا اماه كيف لا يقبلونني ؟

ومرة اخرى ظلت الام صامتة صموت ابي الهول ، واطرقت برأسها الى الارض تفكر ، فتابعت الفتاة تقول : او لم اخبرك يوم لاحقني المخرج السينمائي الكبير (عزت حمدي) واصر على معرفة عنواني واسمي .. ليعهد اليّ بدور البطولة في احد افلامه ،ورغم ذلك تصرين على ان الفشل سيكون مصير محاولاتي ...

تململت الام في مقعدها ، والقت نظرة فاحصة على وحيدتها : نظرة فنان عريق في فنه الى كائن جميل وجده ظلاماً مرعباً .وبعد برهة صمت ران على ارجاء الغرفة ، تحركت شفتاها قائلة : ليس الجمال يا ابنتي كل شيء في عالم السينما ، فهناك الموهبة والمقدرة ، إنه من الصعب عليك الوقوف امـــام الكاميرا !.. من الصعب !..

ونكست الفتاة رأسها لحظة تفتش عن الرد،وسرعان مابادرت والدتها : من قال لك ذلك ؟!.. فالمسرح ومواجهة الجمهور اصعب بكثير من مواجهة الكاميرا . او لا تذكرين التمثيليات التي كنا نقدمها في نهاية كل عام طوال سني الدراسة؟.. وكنت اقوم باقوى ادوارها ؟.. بحيث تركت الاكف تدمى من التصفيق حين مثلت دور جنفياف ؟.. ولسوف ترين كيف سانجح واحتل الصدارة في عالم النجوم السينمائية ، بحيث اترك نجمات مصر يتحول نورهن الى نور الحباحب حيال وهج نجمي الساطع !..

واحست الام ان آخر حجة قد اندثرت امام اصرار ابنتها ، وآخر سهم في جعبتها قد طاش ...

وهذا لاول مرة يحدث بعدمضي عامين اثنين من الجدل والمناقشة

بينهما . وقد شهد مسرح المغزل تمثيليات من هذا النوع وعلى هذا الغرار، بيد ان الام كانت هي الغالبة في كل مرة، الا في هذه المرة . . .

كسا الوجوم محيا الام ، واعتمدت رأسها بين كفيها مفكرة قبل ان تلقي سلاحها معترفة بهزيمتها . .

واحست الابنة بانتصارها بعد عامين من الصراع ، وان سهمها لاول مرة قد اصاب الهدف ، فدنت من امها تربت على كتفيها مخففة وقع وطأة الهزيمة ، وهي تردد : ستتبينين صدق قولي عندما تسمعين التصفيق الحاد يشق عنان صالة العرض للنجمة الجديدة التي هي ابنتك !.. حينئذ ستختالين تيهاً وكبرياء، وستلامس هامتك النجوم حين يشير نساء الحي اليك قائلات : هـــذه والدة النجمة السينمائية « سهير » التي رفعت رأس « حي الامراء » عالياً .

لا بل انهن لن يعثرن بعد ذلك على اثر لنا ، اذ سننتقل من حي الامراء الى حي المعادي او الزمالك او الدقي ، وقد نسكن عمارة الايموبيليـــا عمارة كبار الفنانين والسينمائيين ، كل ذلك حسب رغبتك ورهن اشارتك . . .

ونظرت الى امها فرأت في عينيها نظرة لم تفقه لها معنى . فخشيت ان يفلت الزمام من يدها ، فاكملت تقول : لقد مللت يا اماه هذه الحياة الرتيبة الثقيلة الظل، سننعم في بحبوحة من العيش الرغيد والحياة الرافلة بالسعادة هناك ، حيث ننسى شظف العيش وقساوة الحرمان بعد ان شربنا كأسيها حتى الثمالة!.. لن نخيط الثياب بعد اليوم لاحد ، بل سيكون عندنا من يخيط لنا الثياب ، وخدم يأتمرون بأمرنا !.. ما رأيك يا امــــاه ؟.. تكلمي بحق المرحوم

والدي وبارك خطوتي ...

وظلت الام صامتة مفكرة لا تنبس ببنت شفة . فجلست سهير القرفصاء امامها ، وتابعت قائلة : لمَ لا تتكلمين يا اماه ؟

رفعت الام عينيها المثقلتين بالدموع ، وحاولت ان تتكلم ، بيد ان عبراتها حالت بينها وبين ما تود الافصاح عنه ، وتمالكت نفسها بعد جهد لتردد : ولكن ، هل تعلمين كم سيكون الثمن ؟!.. كم سيكون باهظاً ؟!.

حدجت سهير والدتها بنظرة استغراب تستوضحها فحوى كلامها ، وبلهفة بادرتها : الثمن ؟!.. ولكن هم الذين سيدفعون لي الثمن ، ثمن اتعابي وتمثيلي ... ولن ادفع انا لا مليماً واحداً ..

وغالب الدمع عيني الام على الرغم منها ، فانهمرت دموعها على وجهها الضامر الشاحب ، ولم تتمالك نفسها فانبرت تنتحب في حين ظلت سهير في مكانها وعلامة الحيرة بادية على محياها ، وهي ما انفكت تلح قائلة : ماذا جرى يا أماه ؟ ... تكلمي ، حدثيني ، لماذا تخشين لهذه الدرجة احترافي التمثيل ؟!..

تمالكت الام نفسها ، قالت وقد خرج صوتها كأنه العويل : لأن الجحر الذي لدغني يا ابنتي لا اريده ان يلسعك !..

صمتت الفتاة اذ لم تفقه فحوى هذا الكلام ، فنظرت اليها « امينه » وهي تكمل : الحقيقة التي اخفيتها عليك يا ابنتي هي انني كنت ذات يوم ممثلة ! ..

وصرخت سهير كالملسوعة : كنت ممثلة ؟!...

فاردفت الام: نعم ، لقد كنت ذات يوم في مثل عمرك الآن ، وحسناء في روعة جمالك ، كنت امني النفس ان ارى ذاتي على الشاشة الفضية ، وفعلاً تمكنت وتحقق ما كانت تصبو اليه نفسي ، اذ اصبحت ممثلة سينمائية يشار اليها بالبنان . وكان الجميع يحسدنني على مكاني التي تبوأتها ، ويتمنين ان يكن موضعي ... غير اني وحدي كنت اعرف كم دفعت الثمن ...

وقاطعت سهير والدتها امينه وهي تردد بلجاجة وجــذل كأنها عثرت على كنز ثمين : احقاً تتكلمين يا اماه؟.. احقاً كنت ذات يوم نجمة سينمائية ؟..

وبلهجة باكية غمغمت : اجل ، اجـل يا قرة عيني ، انه سر اخفيته عنك طوال هذه المدة ، وما دمت تصرين على ان تصبحي ممثلة فلا بأس من ان اقص عليك قصتي بعد ان اقسمت على ان ادفنها للابد في اعماق صدري . سأقص عليك مأساة حياتي لتعلمي كم دفعت ثمن طيشي وتهوري ...

واستسلمت لعبراتها تبكي بصمت وهي تفكر ، وكأنها تجمع شتات ذهنها المتلبد ، وتسترجع معلوماتها التي بعثرتها السنون . وراح زورق خيالها يمخر عباب بحر الماضي ليستقر عند شاطئه ، انطلقت من ساحله تقص على ابنتها المأساة :

حدث ذلك حينما كانت السينما الناطقة حديثة العهد في مصر . لم يكن وقتذاك عدد الاشرطة المنتجة الناطقة بالعربيـة تتجـاوز اصابع اليد الواحدة . كنت في مثـل سنك ، اعيش في كنف اسرتي الثرية وكان والدي الباشا رحمه الله شديد الحب لي ، يحقق

كل ما اشتهيه في الحياة ، وفي الوقت ذاته شديد الغيرة عليّ شأن كل امرة محافظة . كنت مخطوبة من احد انسبائنا « فتحي بك » وكان فتحي يحبني كثيراً ، اما انا فلم اكن اشعر بأي عاطفة تجاهه . . .

واثر مشاهدتي لبعض هذه الافلام اغراني بريق المجد وتلك الهالة النيرة من الشهرة التي تتمتع بها نجمات السينما . . فقرّ رأيي على النزول الى ميدان الفن ، ولكن ، أنى لي ذلك وامرتي المحافظة عثرة كأداء في طريقي ؟ . . فبحت بامالي واحلامي الى المرحومة والدتي ، فراحت تنصحني وتريني خطورة الفكرة ، ولكن دون جدوى . . .

وفي احدى الامسيات اجتمع شمل اسرتنا فحدثت والدي عما انتويته ، وكانت ثورة مسعورة الاوار ومعركة محتدمة لم اصطدم بمثلها طوال حياتي . . . غير ان ذلك لم يردعني عن غيي ، او يعدني الى محجة العقل والصواب ، بل زادني عناداً واصراراً . فانطويت على ذاتي احلم بما اشتهي ، واخيراً بحت بمكنون صدري الى صديقتي المخلصة « هدى » ، فعرضت عليّ فكرة سرعان ما نفذناها . . . وبعد ايام قلائل خرجت من القصر بحجة الذهاب الى الخياطة ، في حين ذهبت وصديقتي هدى الى الاستديو لاقف امام الكاميرا اجري التجربة . . .

وجاءت النتيجة طبق ما كنت اتمناه وأحلم به ، ولكن ما العمل ؟ . . كان عليّ ان اختار احد طريقين : اما المجد واما البقاء في سجن والدي الذهبي ! . . واخيراً انتهيت الى السبيل الذي يخولني

بلوغ الطريق الاول ، اذ هربت من القصر بعد ان تركت رسالة مطولة لأسرتي . وكنت قبلاً ، قد اتفقت مع المنتج والمخرج ، ووقعت العقد ، وراحت اسرتي تفتش عني في جميع الاستديوهات ولكنها لم تعثر على ظل لي ، اذ كنت مختفية في منزل صديقتي هدى!.. وكان ان صب" والدي جام غضبه على المسكينة امي ...

وبعد شهر من التدريب باشرنا العمل في الفيلم ، وصديقتي تشجعني ، والجميع يهللون لي ويثنون على مواهبي الفنية ومقدرتي التمثيلية ، وفي تلك الليلة عرفت اشياء كثيرة كنت اجهلها ... لقد ...

وخنقت الغصات صوت الأم فلم تستطع الاسترسال ، بينما ظلت نظرات سهير متعلقة بها تستحثها على اتمام ما ابتدأته . وبعد برهة وجيزة من الصمت اردفت ، في حين كانت الدموع تنحدر ببطء على وجنتيها : لقد اقام لنا المنتج في تلك الليلة حفلة ساهرة بمناسبة المباشرة بالفيلم . لا ، لم يدر في خلدي ان وراء الأكمة ماوراءها ، فأخذت احتسي كؤوس الخمر المترعة ألواناً ، فهذه كأس المنتج ، وتلك كأس المخرج ، والثالث للممثل ، و ... حتى ثملت .. ولما عاد الي" رشدي في اليوم الثاني ..

وراحت الغصات تقطع من جديد نبرات صوتها ، غير انها تمالكت نفسها قائلة : عرفت ، ويا لهول ما عرفت ... لقد دفعت الثمن !.. وكان غالياً جداً !.. لقد افترستني الذئاب ! . بعد ان حولتني ابنة الحان الى غنيمة باردة ، وكان اول الغيث قطرة ، وسرعان ما انجلى الواقع وهطلت الامطار مع هطول دموعي

التي كنت اذرفها تكفيراً عن خطيئتي كلما وجدت نفسي وحيدة خالية عن العمل ، بعيدة عن اعين الرقباء ، محاولة ان اغسل عاري . . .

كنت انتقل مرغمة من احضان المخرج الى المنتج فالبطـــل فالمصور و . . . واذا قاومت نعتوني بانني لا اســاير ركب الحضارة والمدنيـة في العالم !..

وذات يوم هربت ، وسرعان مـــا اقتفوا اثري ، وراحوا يهددونني بالسجن ان لم انفذ العقــد الذي وقعته .

كنت استسلم لهم مرغمة ، وكالشاة المذبوحة لم اعد اخشى السلخ . . . وما دمت قد فقدت ما تفتخر به كل عذراء ، فلم اعد اهاب مغبة الامر . . .

واخيراً عرض الفيلم ، وكنت قد بلغت درجة لم تبلغها من قبل أية فنانة مصرية ، وارتفع تصفيق الجمهور ، وتحقق ما كنت احلم به ، كما تحقق مالم اكن احلم به يوماً .. فقد كان حلماً مزعجاً .. حلماً مخيفاً مرعبا . . .

وللمرة الثالثة قطعت الغصات اوتار صوتها ، بيد انها اكملت بصوت كالعويـــل : ادركت لاول مرة معنى الثمن . . . ثمن بريق المجد ، وهالة الشهرة المزيفة ، اذ كنت حاملا !!.

اجل لقد حملت سفاحاً من الذئاب الانسانية المقنعة ، وفي الوقت الذي كان فيه الناس يشيرون الي بالبنان معتزين بان عيونهم اكتحلت برآي ، كنت انا حائرة خائفة وجـلة افكر كيف اخفي عاري ، كيف استر جريمتي . . . وقد تخلى عني الجميع ، جميع

الذئاب . . .

وفيما كنت لا اصدق مني انعتق من ربقة عبودية العقد الذي كان كالقيـد يكبل يديّ وقدميّ . . .

كان هناك عقد آخر لبطولة فلم جديد اعطوني اياه لأوقعه ، فانتابتني نوبة جنون ، وكأني اردت ان انتقم منهم بالعقـــد ، فرحت امزقه ارباً ارباً ، وألقيت بالعربون في وجوههم وأنا ابكي وانتحب ، وأطلقتها كلمة . . . وقعت على رؤوسهم وقوع الصاعقة ، وتركتهم في امكنتهم جامدين لا يحيرون جواباً . .

عدت اخيراً الى اسرتي ، عدت الى والدي تائبـــة مستغفرة باكية ، اعفر وجهي بتراب قدميه ، وأغسلهما بدموعي ، غير انه نبذني نبذ النواة ، وطردني بعد ان انكرني ، فأنكرني معـه الجميع ، حتى والدتي لم تعرني اذناً صاغية بعد ان اصبحت وصمـة عار في جبهة اسرتي ، وألقاني الخدم في عرض الشارع .

سعيت لمقابلة خطيبي فتحي بك الطيب القلب ورحت اتوسل اليه ليأويني لديه لا كزوجة ، وانما كخادم . . ولكنه بدوره اشاح بوجهه عني . . . ولم يعد ثمة امل . . . ندمت ، ولكن لات ساعة مندم . . . ورحت اهيم في الشوارع طوال الليل واطراف النهار ، وفي اعماقي ثورة مزمجرة . . لا اعلم على من اصبها .

كان هناك طريقان لا ثالث لهما : اما ان اعود الى السينما وإما ان انتحر ! وفضلت الطريق الثاني غسلاً للعار ! . . غير ان والدك رحمه الله ظهر فجأة في طريقي ليحول بيني وبين الموت ، وعرض عليّ الزواج ، وقبلت طبعاً الاقتران به ، لم يكن بي حاجة ان أشرح له مأساة

حياتي ، فقد كان يعرف كل شيء عني ، لانه كان خادماً في قصرنا !..

ظلت سهير في جلستها مشدوهة متأثرة بجو القصة ، وقد انجلى واقع امها المرير امام عينيها ، فران الصمت على الحجرة الصغيرة..

وراحت كل منهما تحدق في الثانية ولا تنبس ، ثم نهضت الام وتوجهت شطر دولاب الثياب العتيق ففتحته ، وأخرجت صرة صغيرة افرغت محتوياتها ، فظهرت مجلات فنية قديمة ، راحت تتصفحها على مرأى من ابنتها وتريها الدعاوة التي كانت تعمل لها .

كانت صور الام على كل غلافاتها ، وأخذت تقرأ لها عن فلمها الاول والنصر الذي لاقاه ، وعن الجمهور الملهوف الذي راح يتساءل عن سر احتجاب النجمة السينمائية الكبيرة ...

نكست الفتاة رأسها وقد ارتسم في عينيها حزن وأسى عميقان ، فقد أحست ان آمالها واحلامها تحطمت دفعة واحدة على صخرة الحقيقة !. حاولت البكاء ، غير ان دموعها شحت في عينيها ..

مرت الايام ولم تعد سهير تتحدث بموضوع السينما . . وكانت والدتها تحترم حزنها وصمتها ، فلم تذكرها بشيء ، كانتا تقضيان طوال النهار تخيطان الثياب لنساء الحي .. وتتابعت الايام ، ولحقتها الشهور ، وأحست سهير ان جرثومة الفن عاودتها بقوة وبلا استكانة ، فلم تفلح في كبت ما يعتلج في صدرها من آمال واحلام المجد ، فعادت من جديد الى ما كانت عليه في الماضي ، وشاهد مسرح الحجرة تمثيليات كثيرة على غرار واحد ، تنتهي بانخراط الاثنتين في البكاء .. واحتارت الام المسكينة من امر ابنتها ، فلم تجد بدآ من اطلاق الحرية لها ، بعد ان تحول المنزل

الساكن الهادىء إلى جحيم ...

ارتدت سهير اثمن واجمل ما تقتنيه من البسة وذهبت لتعود بعد ساعات قلائل تعلن لامها ان التجربة ستكون غداً ...

وكان الغد ... وذهبت سهير ، بينما ركعت والدتها تصلي وتبتهل الى الله ان يكون الفشل مصير وحيدتها . ومرت ساعة ، وساعات ، وامينة في جلستها تلك تصلي وتبتهل وتذرف الدموع ...

واخيراً عادت سهير في ساعة متأخرة من الليل وهي تحمل النبأ لامها ، وكأن السماء القاسية ابت إلا معاكسة الام البائسة ، اذ نجحت سهير بالتجربة نجاحاً باهراً !..

وكانت صدمة للام ، وفي تلك الليلة لم يعرف الكرى من سبيل الى اجفانها ...

سهير تحلم بالمجدوالشهرة والثراء ، والام تحلم بحلم مرعب يخيف اقض مضجعها ، وظلتا تتقلبان في فراشها حتى مطلع الفجر ..

وفي اليوم الثاني ، ذهبت سهير ولم تعد ، ومرّ يوم وثان ، وبعدها رجعت تزف البشرى لوالدتها وتشرح لها دورها في الفيلم الذي ستمثله ... ثم ذهبت في اليوم ذاته ، ومرّ اسبوع ، واسبوعان ، ولم تعد سهير .

ظلت امينة مشتتة ، مستطارة اللب على مصير ابنتها ، لا تدري الى اين تذهب للبحث عنها . وخشيت ان هي أفشت السر حتى الى اقرب الناس اليها ، « ام علي » صاحبة المنزل ، مغبة الفضيحة !.. واخذت ترد على اسئلة الجيران والزبائن المتكررة

بقولها : لقد ارسلتها الى خالتها في الاسكندرية .

ولطيبة قلوب اهالي الحي انطلت عليهم الاكذوبة .

وفي نهاية الأسبوع الثالث حمل اليها موزع البريد مغلفاً كبيراً وراح يستدل بصبية الحي حتى توصل الى منزل ام سهير ، وكان قد تجمهر في اثره نفر منهم ، وعندما اعطاها المغلف وطلب اليها ان توقيع على السجل شارة الاستلام ، كانت علائم الاستغراب ترتسم على وجهها ووجه جارتها «ام علي» وجميع صبية الحي ، لانها المرة الاولى التي تأتي فيها الأم سهير رسالة منذ ان قطنت «حي الامراء» لثمانية عشر عاماً ، وفضت المغلف الكبير ، فراعها ان وجدت فيه مجلة فنيــة مصورة وعلى غلافها صورة ... راحت وجارتها وصبيــة الحي يتأملون الصورة ، وانفرجت شفتاها قائلة باستغراب : سهير رسم سهير ...!!

وتقززت نفسها لمرآها ، والتقط احد الصبيان المجلة من بين انامليها ، وراح وصحبه يحملقون برسم سهير باستغراب ، وكان بالمغلف ورقة مالية تناولتها امينة والقت عليها نظرة باردة ، على الرغم من انها كانت بمئة جنيه . وراحت الجارة ام علي تملأ الحي بالتهليل والزغردة ، في حين انبوت امينة تتلو الرسالة ، بيد ان الحروف والكلمات والاسطر امتزج بعضها ببعض دون ان تحمل لذهنها المتلبد الشرود اي معنى .

وانبرى صبية الحي يرقصون جذلين فرحين ، لان واحدة من بنات الحي اصبحت نجمة سينمائية .

***

سرى الخبر في حي الأمراء سريان النار في الهشيم ، وراحت كل واحدة تخبر جارتها جذلة فرحة بما انعم المولى على ام سهير من نعمة عظيمة ، فمن قائلة : لقد اصبحت سهير نجمة سينمائية يشار اليها بالبنان ، ومن قائلات : وتسكن الآن حي المعادي ، وانها ارسلت رسالة مطولة الى امها وفيها تشرح سبب تغيبها عن المنزل وبالرسالة ورقة مالية بمبلغ كبير . . . تصوروا ، بمئة جنيه . . .

واخذ النساء يزرن امينة زرافات ووحدانا ، وهن يرددن اجمل آيات التهنئة . ومنهن من راحت تزغرد مبتهجة وهي تدخل الحجرة . ورحن جميعاً يطالبن برؤية سهير ، ولكن اين سهير الآن؟ لقد كانت ابعد من الجوزاء عنهن ، اذ كانت تنتقل بين ايدي الاخصائيين ليجلوا عنها الصدأ ويدربوها للمثول امام الكاميرا !.

ظل الوجوم يكسو ملامح الام ، ولكنها على الرغم منها راحت تساير ضيوفها فتنتزع الكلمات انتزاعاً من صدرها . كانت عبراتها تغالبها ، غير انها كانت تغلبها لتتركها حبيسة ، وتضاعفت دهشة الجميع كيف لا تبتهج وقد تبوأت وابنتها هذا المركز العظيم ؟ . .

وما ان خلت الحجرة من آخر مهنئة حتى نهضت امينة بتثاقل تودعها ، واحكمت من خلفها الباب بالمزلاج .

مشت في الحجرة تجر خطاها جراً ، كأنها تمشي وراء نعش عزيز ، والتقطت المجلة بانامل مضطربة والقت نظرة فاحصة على صورة ابنتها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، ودست اناملها في ثنايا ثيابها واخرجت الورقة المالية وراحت تحدجها وعبراتها

تتراقص بين اهدابها. ولم تتمالك اعصابها. وسرعان ما تهالكت على
اول مقعد في الحجرة في شبه غيبوبة ، منهوكة القوى ، وقد هد
كاهلها الحزن العميق والمجهود النفسي القتال ، والقت برأسها على
ساعديها وانخرطت تبكي وتنتحب . وكلما حدقت في صورة
ابنتها ارتفع نحيبها ونشيجها . وبتثاقل رفعت رأسها ،وبنظرات
زائغة اجالتها على جدار الحجرة ، وارتكزت اخيراً على رسم
صغير ثبت في صدر الغرفه لابنتها سهير يوم كانت طفلة ، وقد
ارتسمت على شفتيها ابتسامة الطفولة البريئة . ابتسامة لا تمت
لابتسامة المجلة بصلة . فقد كانت كنسمات فجر من ايام الربيع ،
فعادت لتحدج صورة الغلاف من خلال عينيها اللتين تسبحان في
لجة من الدموع ، واخذت تقارن بين هذه وتلك ، واتسعت
عيناها في محجريها اذ رأت في ابتسامة غلاف المجلة ابتسامة غانية
لعوب ، لا بل خيل اليها ان ابنتها قد تحولت الى عابثة ماجنة ،
الى شيطانة مريدة ، ابنتها العذراء الطاهرة !..

وتحركت اناملها في عصبية تمزق المجلة نتفاً نتفاً ، وفتحت النافذة
على مصراعيها والقت بها الى عرض الشارع !.

نظرت الى الورقة المالية وخيل اليها بأنها تصيح في وجهها
انني ثمن ابنتك ، وشعرت ان الورقة تلذع قبضتها ، لا بل خيّل
اليها انها قد تحولت الى افعى رقطاء تحاول ان تعقصها وهي
تصيح بها : انني ثمن ابنتك !..

فكورتها بين اناملها وبجنون القت بها في الموقد وسرعان ما
التهمتها النيران ، ومدت يدها تنتزع رسم ابنتها من على الجدار

لتضمه الى صدرها برفق وحنان كما كانت تضم سهيراً يوم كانت طفلة وارتفع بكاؤها الجارح الحزين راثية ابنتها مرددة : رحمك الله يا سهير .. لقد ماتت سهير ..

وتناهى صوت بكائها ونشيجها الى جارتها « ام علي » ، فاسرعت الخطى مستغربة ، ووراعها ان وجدت الباب موصداً من الداخل فاخذت تقرعه وهي تنادي ام سهير لتستطلع جلية الامر ، وتمالكت امينة نفسها ورفعت رأسها بصعوبة من فوق صورة ابنتها وهي تحاول جهدها السيطرة على غصاتها التي تبتلع صوتها ، وبادرت تجيب : كلا يا ام علي .. ليس بي حاجة ... ولا أشكو ألماً ، دعيني بحق السماء ، فان العمل الجاهد هد كاهلي ، والكرى اثقل اجفاني ، وانا بحاجة الى الراحة .

وما ان سمعت وقع اقدامها تبتعد حتى استسلمت من جديد الى عبراتها ، وراحت تغسل بدموعها رسم ابنتها .

***

ومضت الايام وعادت امينة الى حياتها الاولى تخيط الثياب لنسوة الحي طوال النهار واطراف الليل ، كان العمل الجاهد يستغرق كل اوقاتها فلم تعد كالماضي فرحة مبتهجة تقص على زبائنها اقاصيصها الساخرة الباعثة للبهجة في نفوسهن ، انما كانت تشتغل في صمت .

كانت سهير تقوم بزيارة والدتها في فترات متقطعة لتطمئن على صحتها ، بيد انها لم تكن لتنام لديها انما كانت تنام في الخارج فتمضي ايامها ولياليها متنقلة من استوديو الى آخر ، ومن مجد في جديد الى نصر باهر ...

ومن حفلة صاخبة حمراء، الى حفلة راقصة، ومن قصر في المعادي، الى فيلا في الزمالك، الى بناية في الدقي، الى شقة في عمارة الايموبيليا، حسب عملها في الأفلام ونزولاً عند رغبة المنتجين واهواء المخرجين والممثلين و ...

وفي زياراتها كثيراً ما كانت تنفح والدتها بعض الاوراق النقدية ذات الفئات الكبيرة غير ان امينة كانت تردها شاكرة، كما ردت ورفضت ان تتبع ابنتها وتسكن معها في الفيلا التي تسكنها بالزمالك .

لم تعد تعرف الابتسامة سبيلها الى شفتي امينة، وكان الشحوب والشيخوخة المبكرة يحتلان وجهها بسرعة وكلما ذكروا لها سهيراً اسرعت العبرات الى مقلتيها تنذر بالانهمار .

وذات مرة طالت غيبة سهير على امها ، وزارتها بعد شهرين ، وانبرت تعتذر لسبب اطالة تغيبها معللة ذلك بأن العمل في الفيلم الجديد يأخذ كل اوقاتها ، اما الأم فظلت صامتة تحدق بها بعينين دامعتين ولا تنبس، وسرعان ما قامت معتذرة بأن لها موعداً مع مخرج اميركي للسفر الى هوليود !

وما ان خرجت وابتعدت سيارتها (الكاديلك) الفخمة ،حتى دخلت «ام علي» فرحة على امينة لتهنئتها بزيارة ابنتها ، غير انها وقفت في مكانها جامدة مستغربة كتمثال قدَّ من حجر ، اذ الفتها تضم بين انامله صورة ابنتها يوم كانت طفلة وقد انكبت عليها تقبلها وهي تبكي وتنتحب ، فاستولى عليها العجب وسألتها : أتبكين يا امينة وقد اصبحت ابنتك نجمة سينمائية ملء الاسماع والانظار في طول

العالم العربي وعرضه !!.

ورفعت امينة رأسها وحدجت جارتهـا بعينين التمع فيهما العذاب المذيب ، والدموع كانت قد اكتنزت مثقلة اهدابها غير انها ظلت صامتة وهي تحدجها بنظرة لم تفقه هذه الاخيرة لها معنى ، وتحركت شفتاها وتمتمت وكأنها ام ثكلى ترثي وحيدها الذي اوري الثرى ، وخرج صوتها قطعة مجسمة من الحزن :

سهير ؟ ... سهير ليست ابنتي !.. لقد ماتت سهير منذ امد بعيد !.. منذ ان اصبحت نجمة سينمائية ... ماتت يوم دفعت عن طيبة خاطر ... الثمن ...

وخنقت الغصات صوتهـا وراحت الدموع تنهمر من مقلتيها بخطين عريضين على وجنتيها الشاحبتين ، ليختفيا تحت ثوبها العتيق الفضفاض ، وظلت «ام علي» في وقفتها تلك تنظر الى امينة كالبلهاء.. اذ لم يشف جوابها منها الغليل ، ولم تفهم لكلامها معنى ، بل ضاعف ردها حيرتها وفضولها ...

***

وكل ما عرفه اهالي « حي الامراء » بعد ذلك ، ان «ام علي» تمكنت بعد جهد من دخول حجرة ام سهير فراعها ان وجدتها رغم انتصاف النهار ما تزال نائمة ... فدنت منها وراحت تحاول ان توقظها ، فراعها ان وجدت جسدها بارداً برود الثلج !..

واخيراً ادركت الحقيقة ، اذ كانت امينة جثة هامدة لا اثر فيها للحياة !!. وارتفع صراخها تطلب النجدة ، وسرعان ما امتلأت الحجرة بنسوة الحي ...

... الشيء الذي ادهش الجميع ان يـــد المرحومة امينة الموضوعة فوق قلبها مباشرة ، كانت قد تحجرت على قطعة صغيرة من الكرتون ، وتمكنوا بعد جهد من فتحها فلما تبينوا ما فيها ، وجدوها صورة لسهير يوم كانت طفلة صغيرة !!

المعذبون في الحياة

ارتفع صوت ديك في دجى ذلك الليـل العميق من جانب الكوخ ، يعلن عن مولد فجر جديد ، وكانت زخات الحمى تنقر زجاج كوة الكوخ نقراً رفيقاً يحدث وقعها لحناً موسيقياً عذباً، وهواء الشتاء الارعن كان يخترق شقوق الباب كهدير الامواج يحمل الزمهرير لمن فيه .. ومن بعيد ، كانت الكلاب تنبح نباحاً متقطعاً ، ثم تعود فتركن الى الصمت ، فيشمل السكون حي « البشيرية » الهاجع في بلدة القامشلي ..

... تثاءب عباس خضر في تكاسل وهو يلقي نظرة من خلال الكوة الصغيرة الى الخارج ، بيد ان بصره ارتد خائباً اذ اصطدم بكثافة الظلام ، فتنحنح وانحنى يشعل فتيلة مصباح الغاز ، وما انتشر ضوؤه الباهت المخنوق ، حتى اجال الطرف محملقـاً بعينه اليتيمة في ارجاء كوخه العتيق الذي تكاد جدرانه تتصافح لضيقه فالفى اطفاله مبعثرين فوق البساط البالي المفروش بأرض الكوخ.

البعض منهم يلتحف غطاءً مميكاً ، والآخرون تدحرجوا بعيداً عن البساط والغطاء ، وكان ظلهم يرتمي على الحائط القديم كالحاً قبيحاً يرتجف بارتجاف الذبالة ، وكانت الرطوبة ، تنبعث من ارجاء الكوخ فتسري قشعريرة في جسده ..

ودنا من زوجته يوقظها ، فهمست وهي تتثاءب بتراخ : ان الوقت لم يحن بعد ، والليل لما يتجاوز منتصفه ...

فنهرها وهو يجيبها : اجل لقد حان الوة ... ت ...

وندت عن عباس قحة جافة ، قطعت عليه حديثه فأخذ يسعل ويبصق وهو يمسك قفص صدره بكلتا يديه ، وتمالك انفاسه المتراكضة واردف يقول : يجب ان يكون كل شيء قد انتهى قبيل الفجر !.

وانصاعت اليه صاغرة ، وقامت توقظ ابنها الكبير « عزو » البالغ الثانية عشرة من عمره ، في حين انهمك عباس بارتداء مزقه البالية ، يحكمها حول جسمه الهزيل ، وهو يحوقل ويبسمل في سره ، وبين الفينة والاخرى تعاوده نوبة السعال الجافة ، وارتفع في تلك الاثناء خوار بقرة من جانب الكوخ ، فتبسم وهو يشعل فتيلة الفانوس ، وحمله بيمناه وفتح الباب على مصراعيه فنفحت رياح الشتاء الباردة وجهه ، ووجه ولده عزو الذي كان قد استوى مذعوراً في فراشه وهو يحاول جهده سدى ان يرفع جفنيه عن جفنيه .

اقترب عباس من بقرته يربت على ظهرها متحسسا باناملة موطن السمنة فيها ، ولحقه عزو بعد ان ارتدى ثيابه فحل وثاقها ، فتناوله

منه عباس بيده اليمنى وفي يسراه امسك الفانوس وراح يسحبها باثره وابنه من خلفه يدفعها وهي تقاوم كأنها تدرك المصير الذي تقاد له ...

كانت الطريق طويلة وعرة غير مرصوفة ، وكثيراً ما اعترضت سبيلهما برك مياه المطر المتجمعة ، والاوحال اللزجة كانت تعلق باحذيتهما فتثقلها . وزخات المطر تتساقط على وجهيهما فيجمدها الزمهرير فيحسان كأنها ذوب الثلج ، فتسرى قشعريرة في جسديهما ، وهما لايزالان يغذان المسير شطر الهدف ، والبقرة تقاوم ، والرعد يقصف والبرق يبهر اعينهما ، والكلاب من بعيد تنبح ، والديكة تعلن اقتراب الفجر ...

وتجتاح عباس بين الآونة والأخرى عاصفة من السعال الحاد ، فتطفر الدموع من عينيه ، ويحس بلحيته الكثة الطويلة التي لم تمر عليها موسى الحلاقة منذ اشهر ثقلاً بغيضاً ، وحذاؤه يؤلمه وهو يلكز بمساميره القاسية الحادة قدميه العاريتين ، ويقف واضعاً الفانوس على الأرض ليزم معطفه الرث كي لا يتسرب الزمهرير الى جسمه المريض ، ويلتفت يحث ولده عزو كلما تباطأت البقرة في سيرها .. وتتراقص امام عينيه احلام متنوعة ، وهي عادة تتمكن منه كلما احس ان الطريق طويلة ...

... سيحمل اليوم لحم البقرة ويطوف به ارجاء سوق القامشلي جيئة وذهوباً ، منادياً جرياً على عادته لفقدان حانوت يتعاطى فيه بيع اللحم كبقية الجزارين ، وسيظفر ولا شك بربح لم يجنه من قبل ، وسيشبع اطفاله الجياع شواء لذيذاً لم تذقه افواههم منذ

امد بعيد ..

وقفزت امام ناظره حالته البائسة وكيف تعاني اسرته شظف العيش وتبيت سواد الليالي على الطوى ، فهو جزار فاشل لا يعرف النجاح اليه من سبيل ، فقد تعاون عليه النحس وفقدان المال فلم يعد بمستطاعه ابتياع المواشي وذبحها ، بيد ان النحس فارقه الى حين فتجمع في حوزته بعد جهد وتقتير مائة ليرة ... اجل مائة ليرة كاملة هي حصيلة ايام قاسية جمعها ... نصف ليرة من هنا ، وربع ليرة من هناك حتى استطاع ان يوفر هذا الرأسمال الذي يرجو ان يكون فاتحة خير وبداية عهد جديد ...

وتقطعت افكاره حين قفز في وجهه كلب شرس ، بيد انه لم يعر نباحه اهتماماً ، بل انبرى يهدىء من روعه عزو والبقرة .. وعاد يسوقها من جديد ، وعزو يدفعها ، وتعود ذاكرة عباس بدورها تعمل فتتراكض امام عينيه وهو في حالته تلك صور الفقر الذي اصبح له صنواً لا يفارقه في خضم الحياة ، وتحمله احلامه الى ماضيه البعيد ... البعيد ، يوم كان عزباً ...

... لم تكن حالته كذلك قبل اقترانه « بفطوم » ، بل كان يرتع في بحبوحة نسبية من العيش الرغيد والصحة الجيدة وكان يملك آنذاك حانوتاً يتعاطى فيه الجزارة حتى زفت اليه ، فرافقه النحس منذ ذلك الحين ، وازدادت عراه توثقاً حين انهال عليه الاطفال ، ففي كل عام جديد كانت تنجب له « فطوم » نكبة جديدة ، حتى اصبح لديه من الاطفال ما تنوء تحت عبء نفقاتهم اسرة ثرية ، وعليه ان يعيل سبعة بطون شرهة كلها تطالبه بحاجاتها

من الطعام دون ان يستطيع أي منها ان يأتي عملاً يذكر ، ما عدا زوجته التي تغسل ثياب بعض البيوتات كلما سنحت لها الفرصة وترك لها اطفالها متسعاً من الوقت . كما ان كبير اطفاله « عزو » بات يساعده في عمله منذ عام وبعض العام ، غير ان مساعدتها لم تكن لتغني عن جوع ، لذا رتعت اسرته في فقر دائم وما يجنيه لا يكاد يسد اود بعض حاجاتها ...

وكرة اخرى انقطعت عليه افكاره ، حين اصطدم بصره بضوء كالشهاب لسيارة عجلى فيها بعض السكارى العائدين من الحانات ، وكانوا يتصايحون متغنين متضاحكين هازئين بالحياة. فتطايرت عليه من جراء سرعتها الجنونية الاوحال ملوثة اسماله ، ونفرت البقرة تريد اللوذ بالفرار ، وتقلص عزو على نفسه كتلة من الاعصاب الوجلة ، وثار عباس حانقاً وانفجرت من فمه الشتائم ، راح يصبها عليهم كالسيل العرم ، اما السيارة فقد اكملت سيرها بسرعتها الجنونية ، وضحكات من فيها تتعالى داوية هدارة ساخرة من عباس ومن ثورته المسعورة .

وعاد الهدوء اليه ، فأخذ يجر البقرة من المقود ، وابنه يدفعها ، وزخات المطر تتساقط ، والبرك تعترض سبيله ، والكلاب تنبح ، والسعال يعاوده ، وصدره يؤلمه ، ويقف ليصلح معطفه ...

انه لا يعرف سبباً معقولاً لهذا السعال الذي تمكن منه منذ عامين . ولكم عالجته زوجه ببعض الأدوية التي اقترحها عليه الجيران ، غير ان السعال لم تخف حدته ، ولم تجدِ العقاقير الموصوفة

فتيلا ولربما زادته مرضاً ، كما كانت الأدوية التي اقترحها الجيران على زوجه سبباً لأن يخبو نور عينه اليمنى ، وتنبه على صوت ولده يقول : لقد ادركنا المسلخ يا ابتاه ...

القى نظرة في ارجائه فألفاه خالياً من الجزارين ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة من ادرك الهدف ، وتنفس الصعداء وهو يضع الفانوس جانباً ، وشد وثاق البقرة بالانشوطة وجرت بينهما وبينها معركة استطاعا بعدها ان يرمياها ارضا ، فأجرى عباس مديته على عنقها فتفجر الدم كحمم بركان ثائر وتطاير على زجاج الفانوس فتحطم وتناثر كالشظايا ، فتجهم وجهه وكادت شفتاه ان تتحركا بشتيمة ، غير انه تبسم متفائلا وهو يتمتم قائلا : انكسر الشر ..

وارتفع في تلك الاثناء صوت المؤذن يدعو المؤمنين الى صلاة الفجر ، فراح عباس يحمدل ويبسمل وأحس بشعور خفي يداخله بأن الشر قد انكسر ، والنحس سيفارقه الى الأبد ، فسرت الفرحة في اعماقه ، وشرع يسلخ البقرة بتأن بعد ان اطفأت الرياح الذبالة ، واجتاحته موجة من النشوة فهو يحلم بالسعادة لا بل يوقن انها ستدركه هذا اليوم بالذات ، حين يحمل قطع لحمها يبيعها في السوق ، وسيجني ارباحاً وفيرة قد تتجاوز المائة والخمسين ليرة ، المائة ... ستصبح مائة وخمسين ، فقد استطاع ان يغرر بصاحبها الريفي الساذج فابتاعها بكل ثروته ، وسحبها جذلاً الى الكوخ يزف البشرى لمن فيه فأحاط بها اطفاله يرقصون فرحين جذلين ...

– صباح الخير عمو عباس ..

ورفع عباس رأسه يحدق بهذا الذي قرأه السلام فألفاه الجلواز « كامل » القيم على الذبح ، وكان قد انتهى من سلخها والفجر لما يدركه بعد ، وما هي إلا برهة وجـيزة حتى حضر الجابي ، فالجزارون ، وعباس منهمك بتنظيف احشاء البقرة ، واقبل اذ ذاك الطبيب البيطري فامتثل عباس بين يديه في خشوع يعلن ان كل شيء قد انتهى .

دنا الطبيب من البقرة وفي يده المدية يفحصها ، وبقي عباس وابنه يراقبانه ، وقد تراكضت انفاسها ، وما كاد يغرز المدية في فخذها حتى قفزت من لحمها السمين يرقات (التريشينوز) !!. ونظر الى عباس وهو يقول : يجب ان تحرق البقرة فوراً لانها مصابة بأخطر دودة تحمل الوباء للانسان !!

... وقعت كلمات الطبيب على عباس وقوع الصاعقة ، واحس بالارض تمور من تحت قدميه ، وبأحلامه العذاب دفعة واحدة تتحطم ، وكأن النحس ابى ان يفارقه ، وضجت السماء آنذاك بالرعود كأنها احتجاج على قرار الطبيب ، وانهمر الغيث كالسيل الدافق ، ونفرت الكلاب تنبح وجـلة والطبيب منهمك في تجزئتها وتهيئتها للتلف حرقاً في حين انبرى عباس يتوسل متضرعا اليه كي لا يحرقها ، بل ليتركها تقتاتها اسرته البائسة ، فلم يعره اذناً صاغية او يرق قلبه لبكاء وعويل عزو ، وكالمخبول ركض عباس يستنجد بالموظفين كي يساعداه فيحولا دون حرقها ؛ غير ان نصيبها من الطبيب لم يكن خيراً من نصيب عباس ، وانما امر الجلواز كامل ليحملها الى برميل التلف !..

وحملت البقرة الى البرميل في حين بقي عباس في مكانه لا يبدي حراكاً ، بل راح يودع بقرته محط آماله واحلامه بنظرة ملؤها الحزن ، ملؤها الأسى ، وكأنه ام ثكلى تودع جوف الثرى وحيدها ، وارتفع بكاء عزو عاصفة اقوى من العاصفة .

وكان المؤذن لا يزال يؤذن ، والمطر لا يزال ينهمر ، وعزو ما انفك ينشج وينتحب ، وارجاء المسلخ تمتلىء رويداً رويداً بالجزارين ، وعباس في مكانه كأنه ابو الهول وقد تجمدت عينه كأنها عين جثة فقدت الحياة وتراكضت الصور وتزاحمت امامها . . .

اطفاله سينتظرونه في الكوخ وهم يمنون انفسهم بانهم سيشبعون اليوم شواء لذيذاً ... وها هوذا يعود اليهم يجر اذيال الخيبة والخسران وقد فقد بقرته ، واضاع ثروته ، وبات بلا عمل وبلا امل . .

سيضجون هذه الليلة بالبكاء وسيبكون كثيراً ، لان الجوع لا يرحم ... غير انهم سيبيتون مرغمين على الطوى . . .

وغاب عن الوجود ، وكاد يسقط على الارض مغشياً عليه ، غير انه تمالك بجهد نفسه . . .

واخيراً انتهت عملية الحرق ، فخرج الطبيب والقى نظرة عطف على عباس واكمل سيره الى منصته .

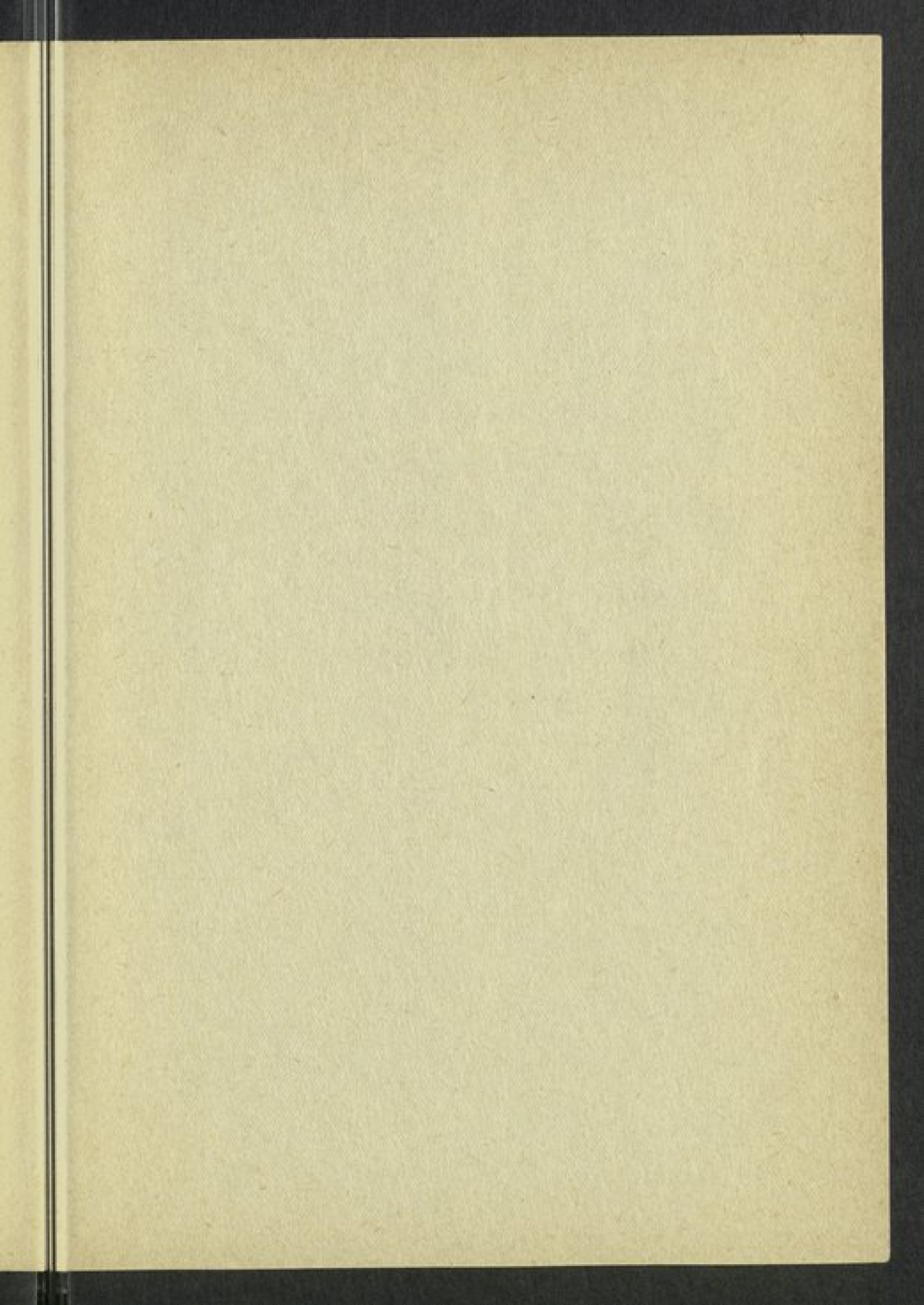
تحرك ابو الهول ببطء وصمت ولملم جلد البقرة وشده بالانشوطة وحمله ، وبيده الاخرى امسك يد ولده عزو الباكي الملتاع ، الذي حمل بدوره الفانوس المطفأ المهشم الملوث بالدماء وراحا يجران خطاهما بصعوبة من باحة المسلخ تتبعهما نظرات بقية الجزارين

الحزينة ، وقبل ان يختفيا بالباب ، نكص عباس على عقبه وبملامح متحجرة ألقى نظرة اخيرة على المكان الذي احرقت فيه بقرته فخيل لبعض الجزارين انهم رأوا خيال دمعه في مقلته ، وسرعان ما عاد يكمل دربه جاراً باثره ولده ...

واجتاحت الجزارين موجة من الصمت والحزن العميقين ، فظلوا في مكانهم متأثرين حزيني الملامح ..

وصـــاح ديك حينذاك ومد صيحته في تأنق واصرار كأنه يؤكد بانه رأى اول خيوط الشمس وهي تلقيها على الكون ، في حين ما زالت الكلاب تنبح ... والمطر ما زال ينهمر غزيراً .. غزيراً يغسل ارض المسلخ من بقايا دماء ...

وما هي إلا هنيهة وجيزة حتى عـادت الامور في المسلخ الى مجراها الطبيعي ، وانهمك كل جزار بعمله ، كأن شيئاً لم يحدث ..



رسالة من مجهول

حين التقى موزع البريد سالم بزوجته ليلى ، في منزل نسيبه « المحامي جميل فخر الدين » في طرابلس ، كان في اجازة من عمله ، وسرعان ما كلف احدهما بالآخر ، وبحفل بسيط تم زواجهما ...

كان سالم في العقد الثالث من عمره ، يتيم الابوين لا يملك من متاع دنياه سوى بيت متواضع قائم في احد ازقة « المزرعة » ببيروت . ووظيفة «ساعي بريد» امضى فيها قرابة سنوات خمس استطاع خلالها ان يدخر بعض المال الذي اقتصده من راتبه البسيط .

اما ليلى فقد كانت في عقدها الثاني تنحدر من اسرة تقارب سالماً في مستواه الاجتماعي ...

ولأول مرة منذ ان ابصر سالم النور ، شعر بالسعادة والهناء في كنف زوجته ليلى ، فهو شديد الحب لها ، والغيرة عليها ، لذا بقي في منأى عن اصدقائه الموظفين ، لا يستقبل احداً في منزله ، حتى ان رفاق طفولته وصباه اهملهم وقطع كل علاقة له بهم .

وأدركت زوجته مركب النقص فيه فلم تقم علاقات بينها وبين جيرانها الجدد ...

لم يكن ليتصل احد بليلى الا ذووها الذين كانوا يبعثون اليها في بحر كل شهر رسالتين تأتيان باسمه في اوقات متفاوتة ليفاجئها بها .

كما ان صديقتها « مريم » نسيبته وشقيقة المحامي جميل ، كانت الصديقة الوحيدة التي تبعث لليلى في كل شهر باكثر من رسالة ..

كان سالم يخرج مع الفجر الى عمله في شعبة الموزعين ، ليقف خلف الطاولة الكبيرة يحيط به الرهط المعهود من رفاقه موزعي البريد ، فيفرغ الاكياس ويفرق الصحف والرسائل والطرود ، يوزعها بتأنٍ حسب احيائها ، ويصفها اكداساً اكداساً متنافرة غير متناسقة ، ثم يعهد بهذه الاكداس الى اصدقائه الموزعين ، ويأخذ هو حصته ويخرج لتوزيعها في شارع « نهر بيروت » ذلك الشارع الصاخب الهائج كالبحر الثائر المزمجر المملوء بالباصات والعربات وضجيج ابواقها والحافلات وهديرها ، والمارة وصخبهم ، وسيارة تقفز من هنا ، واخرى ترمح من هناك ، وهو يقظ متنبه يقوم بعمله بهمة ونشاط ، فيتخلص من توزيعها في الرابعة بعد الظهر ، ليأخذ الترام الى شعبة البريد ، فيسلم الرسائل التي لم يعثر على اصحابها .

وكثيراً ما كان يعود الى داره باكراً في الخامسة مساء ، فيلقى زوجته ليلى في انتظاره هاشة باشة ، وقد حولت عش الزوجية الى جنة وارفة يحيا في اجوائها الصفاء ، وتظللها

السعادة ...

وبعد اربعة اشهر من زواجها سمح لها بأن تقوم بزيارة ذويها في طرابلس ، وخلال غيابها احس سالم بشوق لا يوصف اليها ، فقد تحولت حياته بدونها الى جحيم ، وعادت بعد خمسة عشر يوماً جذلة فرحه تخبره بأن صديقتها « مريم » قد خطبت الى شاب يدعى « عادل » .

ومرت الايام والزوجان غارقان في عسال الشهور ..

وعاد سالم ذات يوم من عمله ليتلقى نبأ من زوجته ، همسته في اذنه وقد تضرجت وجنتاها باحمرار الخجل ، وما ان سمعه حتى كاد يطير فرحاً ..

فقد اثمر حبهما جنيناً ..

ومر شهر وأعقبه آخر ، وتبعه ثالث ، وهما يرتعان في نعيم الحياة الزوجية الهنيء ...

بيد ان حادثاً طارئاً عكر صفو حياتها ردحاً وجيزاً من الزمن ...

ففي ذات مساء بعد ان انتهى سالم من عمله ، عاد الى منزله ، وما كاد يقارب اعتاب الدهليز المؤدي اليه حتى طالعه وجه زميله عزت ، فوقفا وراحا يتجاذبان اطراف الحديث ، وانتهى بعزت القول :

لقد فتشت عنك اليوم فقيل انك خرجت مبكراً الى التوزيع فقد كان معي رسالة خاصة بزوجتك ليلى !

وسأله سالم : واين هي ؟

اجابه : لقد سلمتها لها .

فبادره مستوضحا : وممن كانت الرسالة ؟

فقلب عزت شفتيه وهو يقول : لم يكن هناك اسم للمرسل !!

ظل سالم في مكانه جامداً لا يحير جواباً ...

خاصة وقد درجت العادة على ان تأتي رسائل ليلى باسمه فيحملها هو لها ، فمن عساه يكون هذا المرسل الذي لم يرغب في ارسال الرسالة بواسطته ؟.

فودع زميله وتوجه شطر داره مضطرب النفس مشتت الفكر ، مستطار اللب ، يتجاذبه الف فكر وخاطر عن مصدر هذه الرسالة التي وصلت لزوجته مباشرة من مجهول !..

فمن عساه يكون هذا المجهول ؟... واي سر تحمله الرسالة؟.

وهاله حين لم يلقَ زوجته كعادتها في انتظاره ، وما ان خطا خطوة في صحن الدار ، حتى تناهى الى سمعه ضجة وجلبة وصوت اوراق تتمزق ، وعود ثقاب يشعل ، وبسرعة قفز الدرجات القلائل المؤدية الى غرفته ، وولجها كالبرق ، فألفى زوجته مضطربة ، مشنجة الاعصاب ، وما كاد نظرها يقع على سالم حتى ازداد اضطرابها .

وفي عتبة الغرفة كانت بقايا الرسالة تحترق . وبسرعة اطبق سالم بيده عليها عله يعثر في بقاياها على السر الدفين ...

لكن الرسالة كانت قد احترقت ، الا رقعة صغيرة منها ،لم تفلح فراسته في حل رموزها ، إذ كانت مكتوبة بخط ردىء مبهم ، فانبرى يصلي زوجته بنظرات شزراء في حين انكمشت

هي على نفسها ، وقد كسا الاصفرار وجهها ، واخذت اوصالها ترتجف كأنها قصبة في مهب الريح . وفي عينيها تجسم الرعب والذعر كأنها اقترفت جريمة نكراء أو أتت ذنباً خطيراً فباتت تخشى مغبة العقاب ، فسألها في ثورة ، والغضب يتطاير من كلماته كالحمم : لماذا احرقت الرسالة ؟ . . تكلمي ،لماذا احرقتها ؟ . .

غير ان ليلى ظلت صامتة واجمة لا تحير جواباً ... وقد ازدادت ملامحها اصفراراً .

فاردف سالم يقول : تكلمي ، لماذا احرقتها ؟ . . اجيبيني ، ممن جاءتك ؟ . . ومن هو المرسل ؟ . . والدتك ، والدك ، صديقتك مريم ؟

بيد انها لم تجب بشيء ، فانبرى زوجها يلح في السؤال ورغم ذلك لم تنبس بكلمة . فاحتدم سالم حدة ممزوجة بمرارة ، وصرخ فيها : أجيبيني من هو المرسل ؟ . . تكلمي من أرسلها اليك ؟ . . .

ومرة أخرى كان ردها الصمت كأنها تحولت الى تمثال قدّ من حجر . . فثارت اعصاب سالم ، ولطمها بقوة لطمة تركتها تعانق ارض الحجرة ، فارتفع بكاؤها ونحيبها ، اما هو فما انفك يلح على معرفة اسم المرسل ، والغيرة تتأكل صدره . . .

ورفعت ليلى رأسها ، وتحركت شفتاها ، وغمغمت ، والغصات تقطع نبرات صوتها : هذا أمر ليس من شأنك ! . . انه أمر لا يعنيك ! . . . انه يخصني فقط ! . .

وانفجر مرجل غضبه فانطلقت يداه بقسوة ووحشية تشبعانها لكماً وضرباً . غير ان ذلك ايضاً لم يفد او يجد فتيلاً فيجعل

ليلى تعترف باسم المرسل ،بل ظلت تنشج وتنتحب وهي تردد : هذا أمر ليس من شأنك ... إنه يخصني ...

وعيل صبره دون ان يتمكن من الوصول الى سر الرسالة المجهولة. وأحس بجسمه قد هده الوهن ، وبأعصابه تخور فتهالك على المقعد يسترجع انفاسه الحارة المبهورة ، وهو لا يزال يصليها بنظرات شزر ...

وفي تلك الليلة لم يعرف الكرى الى اجفانه من سبيل ، وظل يتقلب فوق فراشه حتى انبلج الفجر ...

ومنذ تلك الليلة غربت شمس سعادته ، وتحول الى عين يقظة يراقب جيئاتها وبيئاتها ..

وازدادت مراقبته لها حين تبين له ان نفسيتها قد تبدلت وتحولت عما كانت عليه في الماضي ، اذ كانت تستسلم الى التفكير العميق تارة ، وأخرى الى البكاء ، تبكي بألم وحرقة وجن جنونه حين الفى ان جهوده التي بذلها في الوصول الى السر الدفين قد ذهبت ادراج الرياح ، إذ لم يتمكن من معرفة اسم المرسل ، ذلك المجهول ... الذي قلب حياتها رأساً على عقب ..

وما عاد مرة الى منزله إلا ولقي ليلى باكيـــة منتحبة ، أو ساهمة واجمة ...

وبعد اسبوع من هذا الجحيم الذي استعر سالم في حمأة نيرانه، طلبت اليه ليلى السماح لهـــا بالسفر الى طرابلس ، لتقوم بزيارة أهلها معللة ذلك بالشوق اليهم ، فمنعها ،وأصر على بقائها في المنزل..

وعصفت في رأسه التهم والافكار ، ترى لماذا تزور اهلها ؟..

واي حافز يدفعها للقيام بمثل هذه الزيارة ؟

وباتت الافكار السود تتقاذفه. وكان سؤال واحد يدور دوماً في اعماقه: ترى لماذا اخفت عليه زوجته اسم المرسل؟.. وممن جاءتها تلك الرسالة؟.. هل تكون من عشيق؟.. ومن عساه يكون ذاك الذي هدم صرح سعادته وقوض مضجعه ؟.

وفي زحمة تلاطم هذه الافكار التي كانت تصخب داوية هدارة في اعماقه، ظل المسكين حائراً لا يكاد يستقر له رأي او يهدأ له بال ...

وذات ليلة استيقظ من نومه على اثر حلم مزعج رآه فهاله ان يجد ليلى مستيقظة تفكر ...

وفي الليلة التالية ضبطها تحرر رسالة على قصاصة من الورق، وعبثاً حاول ان يعلم لمن كانت تخطها ...

فاخذت الغيرة تنهش فؤاده محولة حياته الى جحيم. فان تصرفات زوجته التي كان يظنها ملاكاً طاهراً تدعو الى الحيرة والشك! فلم تخفي عليه السر وهي التي لم تتعود قبلاً ان تخفي عليه شيئاً؟!.

وفي امواج هذه الافكار المتلاطمة راح المسكين يتخبط خبط عشواء دون ان يستطيع ان يجد قبساً من نور يلقيه على سرها الدفين. وتحولت يوماً بعد يوم سعادتها الزوجية الى شقاء وعذاب، وقد اطلقت الغيره الجنونية لنفسها العنان وشلت تفكيره ...

وفي مساء ذلك النهار، عاد الى المنزل فلم يجد فيه ليلى، وبعد برهة عادت باكية ناحبة. ولم تفد ثورته ولا تهديده اياها بالطلاق نفعاً ...

وبات لا يستطيع القيام بواجبه كما كان شأنه في الماضي، بل اصبح بطيء الحركة، خمولاً، شارد الفكر ساهي النظرات، فأخذ رفاقه يتهامسون من حوله، كل يحاول ان يجد تعليلاً لما آلت اليه حالته...

وفي صباح اليوم الثاني، وفيما هو وراء الطاولة الكبيرة يحيط به موزعو البريد، قفز امام عينيه كالشهب خاطر وسؤال..

من يدري ؟ قد يكون الجنين الذي يستقر في احشاء زوجته ليس من صلبه ؟!. اجل، لعله من صلب عشيقها!.. وليس بالبعيد ان يكون في تلك الرسالة سر يتعلق بهذا الامر ؟!

اجل هذا هو الرد الذي يبحث عنه .

وهذا طبق ما تحويه الرسالة ...

وقر رأيه اخيراً على التخلص منها !.. سيطلقها !..

اما كفاه ما عاناه من هموم وقلق طوال خمسة عشر يوماً امست حياته خلالها الجحيم بعينه، وهي الخائنة، الزانية ؟..

وان لم تكن خائنة، فلمَ تكتنف حياتها في هذا الغموض المريب ؟!.

وما عساه يكون ذلك السر الذي اخفته عليه الا الخيانة الزوجية ؟!.

اذاً، سيعود هذا اليوم الى المنزل ليضع حداً لهذه الحياة القلقة المضطربة ...

ولكن، لا، لن يدعها تنفذ بجلدها ... سيقتلها !!. اجل سيقتلها غسلاً للعار!. فهذا هو الحل الوحيد، وجزاء الخيانة الزوجية!.

***

وعاد سالم من جديد يفرق الرسائل والصحف والطرود حسب

احيانا وعناوينها ويضعها في الأمكنة المعدة لها. وكاد ينهي توزيع البريد ، عندما اخذ يقرأ عنوان رسالة ، وفجأت توقفت يداه عن الحركة ، كأنما اصابها شلل مباغت ، وجحظت عيناه في محجريها ، وزاغ الاسم من امام ناظريه!.. وعاد لقراءتها مرة ثانية ،انها لها !.. والاسم اسمها !.. اسم الخائنة زوجته !. والحي ،هو حيهم ذاته !..

وعاد يعمل نظره في الرسالة !.. يا للمجرم !.. انه لم يرسلها بواسطته ليحملها هو اليها ، بل ارسلها لها مباشرة !.. ولم يخجل النذل من وضع اسمه في اعلى الظرف !..

ثم اخذ يقرأ اسم المرسل ؛ وقد تشنجت اعصابه .

جميل فخر الدين !؟...

وتوقف عن القراءة .. ولكن ، ايعقل ان يكون نسيبه جميل ذاته عشيقها ؟!. وهو الذي دله عليها و اختارها زوجة له ؟!. اهو ذاته يخونه ويتصل بها النذل في الخفاء؟ ليحول حياته الى جحيم .. ومن يدري ؟. فلعلّ الجنين من صلبه؟..

ومادت الارض من تحت قدميه ،وقفزت الدموع الى مقلتيه. فبكى في صمت مرير ...

سينطلق الآن الى منزله ليناقش الخائنة الحساب ويقتص لشرفه المثلوم ، فقد اصبح دمها حلالاً بعد ان توفرت الادلة القاطعة على خيانتها الزوجية ...

وخشي ان تعبر ملامحه عما يعتمل في اعماقه من مشاعر ، فبدأ يسعى للسيطرة على اعصابه كي لا يفتضح امره ...

ودس رسالة زوجته في حقيبته الخاصة ، مع حصته من البريد.

وخرج من الدائرة قبل الجميع، مستقلا الترام الى نهر بيروت لينهي التوزيع ، ومن ثم يعود الى البيت ليحاسبها ويقتص منها ...

***

وها هو ذا في شارع النهر المملوء بالسيارات وضجيج ابواقها، والمارة وصخبهم ، ومن هنا شاب يسأله عن رسالة ومن هناك تاجر يستوضحه عن جريدته ، وآخر عن مجلته ، وهو نهب مشتت يجيب الجميع بأن لا بريد لهم اليوم على الرغم من ان حقيبته تكاد تنفجر بما تحويه ، وكاهله يكاد ينوء تحت عبئها . وتوقف فجأة كمن تذكر أمراً جللا : لماذا لا يفض الرسالة ويستطلع فحواها؟..

والتمعت الفكرة في رأسه كالشهاب : سيعرف لا شك كل شيء عن عشيق زوجته، نسيبه الخائن جميل ، وعن طريقة اتصاله بزوجته، ثم يدبر طريقة للاقتصاص منهما سوية ، وبالجرم المشهود . وامتدت يده تستولي على الرسالة ، ولكن ، لا ! . لن يفتحها لان القانون لا يجيز له ذلك ، وواجبه كموزع بريد يقضي بأن يسلمها بيدها ..

وعاد يغذُ المسير ... والافكار السود تتصارع في مخيلته ، وتوقف فجأة عن المسير وامتدت يداه بحركة لاشعورية وامسكتا بالرسالة . ليحدث ما يحدث وليتجاوز القانون ، فسوف يفتحها..

فضها وهو يزيد الى ضوضاء الشارع وصخبه ضوضاء وصخباً جديدين ، وشفتاه تتحركان بسبة قذف بها زوجته وجميلا . فتح الرسالة ونشرها امام عينيه، بيد ان الاحرف تمازجت بالكلمات، فالسطور ، واختلط بعضها ببعض . وسمع بوق سيارة من ورائه فوصله صوتها ضعيفاً واهناً ، وسرعان ما اقتربت فايقظته

من غفوته ، فافسح لها الطريق .. وصعد إلى الرصيف ..

وعاد الى الرسالة يقرأها وأخذت الكلمات تتراقص امـــام عينيه ، وابواق السيارات ، ورنين اجراس الحافلات ، وعربدة المارة ، وصفير شرطة السير — هذه المزعجات كلها — كانت تقطع عليه حبل تفكيره . وخيل اليه ان عدد هذه المزعجات قدازداد هذا الصبـــاح ، ورغم ذلك فانه مصر على قراءة الرسالة ليعلم كيفية العلاقات بين زوجته الخائنة وجميل النذل .

ولكن أنى له ذلك والفضاء الرحب مملوء بضجيج السيارات التي تتطاير كالشظايا ، فلا يحسن قراءتها ،وهي ما زالت منشورة بين يديه، وتاجر يسأله عن جريدتـه، وشاب يستوضحـه عن تحرير ؟ وعزم على قطع الشارع الى الجهة الثانية، حيث السكون أشمل ، والهدوء أعم ، وهبط الرصيف وانبرى يقرأها :

حبيبتي ليلى .

قبلاتي الحارة ...

اف .. وتعالت الضجة ثانية ، واخذت السيارات تتطاير من حوله ، ورغم ذلك اتمّ :

واشواقي الملتهبة ...

وسمع دوي الحافـلة من خلفه فوصل طنين جرسها الى سمعه ضعيفاً واهناً ، ثم غدا صاخباً قوياً ، وكالسهم عبرت ، وسائقها يضرب بقدمه جرسها ويمـلأ جو الشارع لعنات وشتائم ، وبرزت كالشياطين من المنعطف السيارات الصغيرة ..

ورغم ذلك استمر في قراءتها :

لقد مضى خمسة عشر يوماً يا ليلى منـــذ ان ارسلت اليـك رسالتي الاولى ...

وتلاشت الكلمات من امام ناظريه ، فقد وقـع عـلى الحقيقة المؤلمة التي كان يبحث عنها ، وتحول شكه الى يقين ، وها هو ذا البرهان القاطع بين يديه ، البرهان عــلى خيانة زوجته له مع اقرب الناس اليه !.. ولم يعد ثمة شك بأنها خائنة زانية ، وانه مغفل اذ لم يدرك طوال هذه المدة انها تخونه ، ولم يعد يحسن السير ... واصابه الدوار ، وقفزت الدموع الى مقلتيه يبكي حظه العاثر الذي قاده الى الزواج منها . يبكي بألم وحرقة !.. وتراقص امام عينيه المغرورقتين بالدموع خيال زوجته الخائنة ، ولفظ شتائم كالحمم زلزلت الشارع وهو يزمجر : خائنة ، زانية ، حية رقطاء ..

وتناهى الى سمعه وهو في حالته تلك صفير الشرطي يدوي في الشارع ، وارتفع لغط المارة من كل صوب وحدب . وفي غمرة ذلك الزحام وذاك الضجيج ، امتدت يــد قوية مجهولة تحاول سحبه الى الرصيف ، في حــين كانت شفتاه تردد : خائنــة زانية .. حية ..

ولكن الصرخة اختنقت تحت عجلات سيارة مجنونـة كانت تنهب الارض نهباً ، وغاب عن الوجود ولم يعد يدرك بعد ذلك مـا حدث ...

وتـدافعت المناكب البشرية ، واحاط الناس بجثــة سالم المضرجة بالدماء ... اما سائق السيارة الجانية ، فقد اطلق العنان لسيارته لتسابق الريح ، فتختفي بلمح البصر ، كأن الارض

ابتلعتها ...

وازداد عدد رجال الشرطة ، وارتفع صفيرهم عالياً ،واخذت السيارات والحافلات تتجمهر في طرفي الشارع في خطين طويلين. فقد قطع جسد سالم والسابلة عليها الطريق ، وعبثاً تعالى صفير الشرطة يحاولون تفريق الجمهور المجتمع ... الذي ارتفع لغطه وصخبه ... معلقاً على الحادث كما يحلو له ، ويصور نفسية سالم طبقاً لنفسيته .

فهذا يتألم ، والثاني يلوم ، والثالث يسخر ...

وحضرت سيارة الاسعاف تنشر ولولتها الرهيبة والقشعريرة في النفوس ، فافسحت لها المناكب البشرية الطريق لتقل سالماً الى المستشفى ...

وتفرق الناس كما تجمعوا .. وعادت حركة السير كما كانت قبلاً الا من الفضول والعجب اللذين كانا يستوليان على المارة لوجود بقعات من الدم تلوث الشارع ، وسرعان ما اقبل عمال البلدية ينظفونها ، وبعد برهة عاد كل شيء الى مجراه الطبيعي ...

***

جاء المساء ، ولم يعد سالم الى منزله ، فراحت زوجته تنتظره قلقة وقد عيل صبرها .

واخيراً علمت سبب تغيبه ،فقد جاء زميله عزت ينبئها ،وكانت الصدمة عنيفة على اعصابها ، فسقطت الى الارض صارخة باكية ملتاعة ، فاخذ عزت يشد من عزمها بكلامه وينهنه لوعتها ويهدهد اساها ..

واستقل اول سيارة شطر المستشفى وليلى في شبه غيبوبة ...
وكان في الردهة الكثير من زملاء سالم ، فحاولت ليلى ان تشاهد زوجها في غرفة العمليات ، غير ان الممرضات لم يسمحوا لهـا بذلك ، وفي الردهة راحت بدورهـا تنتظر النتيجة بقلق مستفز ...

وبعد برهة وجيزة خرج الطبيب من غرفة العمليات ، فهرعت اليه ليلى وزملاء سالم ، سائلين مستفسرين ، فبادرهم الطبيب قائلاً : هناك بعض الخطر ، لكنه زائل ان شاء الله ...
والتفت الى ليلى قائلاً : أأنت زوجته ؟..
فهزت ليلى برأسها بان نعم ، اذ لم يكن بأستطاعتها التكلم ،
فاردف الطبيب يقول : لقد وجدنا بين انامل سالم هـذه الرسالةالخاصة بك !..
فقفزت ليلى كالملسوعة وهي تقول : رسالة خاصةبي بيدسالم؟!.
وتناولت الرسالةمن يدالطبيب فوجدتها ملوثة بالدما ، فانتحت ناحية قصية عن زملاء سالم ، ومن خلال دموعها راحت تقرأها لتستطلع مكنونها :
حبيبتي ليلى ...
قبلاتي الحارة واشواقي الملتهبة ...
وعادت الدموع تحجب الكلمات من امام عينيها فتحول دون قراءتها . فمسحت عينيها وتمالكت اعصابها وعادت تقرأمن جديد :
لقد مضى خمسة عشر يوماً يا ليلى منذ ان ارسلت اليك رسالتي الاولى ...

ومرة اخرى اكتنزت الدموع في مقلتيها ، بيد انها استجمعت شيئاً من قواها وعادت تقرأ :

وشرحت لك فيها القضية ، على أحسن صورة ، وقد اودعتها كل خفايا قلبي ، وأظنك ما زلت تذكرينها ،وهي قضية الخلاف الذي وقع بيني وبين خطيبي عادل ، وهجرانه لي بعد ان ترك في احشائي ثمرة جريمته النكراء !.. فخشيت مغبة الفضيحة لا سيما فيما إذا وقع اهلي على الامر ...

بيد ان الوساطات التي اقترحتها عليّ في رسالتك تمكنت من اعادة المياه الى مجاريها ...

فقد عاد إليّ عادل ، وهكذا أنقــذ الله شرف الاسرة من الفضيحة ...

فجئتك اليوم برسالتي هذه أزف اليك البشرى بأن موعد زفافنا سيكون في بحر الشهر القادم ! ...

فآمل ان يحصل نسيبي العزيز سالم على اجازة من عمله لتحضرا سوية حفلة العرس ...

كما ارجو ألا تكوني قد اخبرته شيئاً عن الحادث ؟..

وان سوء التفــاهم الذي نشب بينكما واستفحل من أجل رسالتي الاولى ، قد زال ؟!.

ختاماً ،وفي انتظار حضوركما ،تفضلي بقبول قبلاتي واشواقي

المخلصة

مريم

حاشية : أرجو المعذرة لانني استعملت ظرفاً من ظروف شقيقي جميل المطبوع عليها عنوانه واسمه ، إذ لم أجـــد ظرفاً ابيض في المنزل!!!

***

غير ان مريم لم تصدق فيما ذهبت اليه في رسالتها ... إذ لم تتم حفلة زفافها في الموعد الذي حددته !..

انما تأخر شهراً ثانياً من اجل حادث سالم ! ..

وكانت حفلة الزفاف جد فخمة ، حضرها الكثير من عليـة القوم ... كما حضرها سالم !.. أجل سالم بعد ان شفي من صدمه السيارة!.. وكان يتأبط ذراع زوجته الوفية ليلى ، وقد طفح البشر والسرور على وجهيهما ، فراحا يملآن أرجاء المكان بقهقهاتهما ...

فقد عاد الهناء الى قلبيهما ثانية ، وغمرتهما السعادة بفيضها ... بعد ان أدرك سالم كل شيء عن الرسالة التي جاءت لزوجته الوفيـة من ... مجهول ...

معركة .. قبيل الغروب

... وبعينين مكدودتين اجلت طرفاً زائغاً وجلاً الى حيث يمتد بصري ، رغم انني كنت ادرك انه لن يمتد بعيداً ، اذ كان يصطدم في كل مرة بكثافة الظلام الذي كان يلفني . بيد انني كنت اعلم بحدسي ان الطريق الى الهدف طويلة شاقة ، فقد امضينا قرابة الساعة ونحن نزحف على اربعة ... دون ان نصل الى منتصفه !..

... كانت الطريق جد وعرة . على الرغم من انه لم يكن بمقدوري رؤيتها ، فقد كنت اتحسسها باناملي اذ كانت صعبة المسالك تتخللها الحجارة والصخور والاشواك البرية المرتفعة ! .

كل ما يحيط بي كان يدعو الى الرهبة : الليل المخيف وهو في هزيعه الاخير .. انفاس رفقائي الحارة المبهورة ... خفقات قلوبهم التي كنت اسمعها كوقع المطارق .. وجوههم كما كنت اتصورها ، رغم ظلام ذلك الليل البهيم ، صفراء بلون الشمع ، عيونهم القلقة النظرات ... السكون الشامل الذي يزيد في رهبته حفيف اجسادنا وهي تشق طريقها عبر الصخور والاعشاب ..

الموت الذي ينتظرنا بالمرصاد في كل لحظة ولأقل هفوة من احدنا ومن بعيد يحمل الينا الاثير صوت ازيز الرصاص .. واشباحنا التي تزحف على اربعة منذ اكثر من ساعة ، ونحن نتحسس ككفيفي البصر باناملنا الدامية مواطيء ايدينا وركبنا .. والقنابل الكشافة تتحرى موقعنا فتملأ بفيض من نورها الوهاج ارجاء المكان فتبهر اعيننا ، ويساورنا الظن ان امرنا قد افتضح ، فتختنق انفاسنا في صدورنا...

الا ان امرنا لم يفتضح ، فالاعشاب والصخور كانت تحجبنا ، ثم نعود فنزحف بهدوء وترو ، نزحف نحو الهدف ..

هكذا كانت التعليمات !!. وكان علينا ان ننفذها بدقة متناهية والا فالموت الزؤام ينتظرنا ...

وادركت اخيراً بحدسي اننا قد بلغنا منتصف الطريق ، فقد تلقينا اشارة بالتوقف عن الزحف ، وبهدوء رحت استرجع انفاسي ...

ومرة أخرى انفجرت قنبلة كشافة انارت جنبات المكان ، وعلى ضوئها رأيت احدنا يزحف منفرداً وحيداً نحو القمة ، وكادت شفتاي تردان في جذل : خالد صفوة !

غير اني خنقت صيحتي في صدري مغبة افتضاح امرنا .

فقد كان خالد وحده الذي يحسن الاقدام على مثل هذا !.

كنت خائفاً وجلاً ، وكانت عيناي تجولان في محجريهما في رعب قاتل ، فقد كانت تلك اللحظات من ارهب اللحظات التي مرت عليّ خلال حياتي ، على الرغم من انه كان يحيط بي عدد يكاد

يتجاوز الثلاثين من خيرة الرجال الاشداء البواسل ..
: فؤاد ... اهذا انت يافؤاد ؟! .
وبغبطة اجبته هامساً : سعيد ؟! .
واسترجعت بعض رباطة جأشي عندما علمت ان سعيداً بجانبي . فانه حين يكون بقربي لا يعرف الخوف الى نفسي سبيلاً .
وكنت اتفاءل خيراً حين نكون معاً ، فقد نشأنا وترعرعنا في حي واحد ، وحصلنا على التعليم على مقعد دراسي واحد ، وحين قرر الاقدام على هذه الخطوة البطولية ، كان هذا نفس قراري .
وعدت احدق من جديد في الظلام .. وفجأة ، تدحرجت قطعة من الصخر من اثر زحف خالد ، فتنبه العدو وارتفعت صفارة الانذار ، واذا بقنبلة كشافة تنفجر ، فتملا صفحة التل بنور بهر اعيننا ، فرأينا في برج المراقبة رشاشين راحا يلعلعان ويزرعان التل برصاصها في جنون ، وفجأة قفز خالد واستوى على قدميه واقفاً وصرخ صرخة جلجلت في ذلك الليل البهيم ، واعقب صرخته دوي هائل ارتج له التل ، واخرس احد الرشاشين ، وتساقطت من اثر الانفجار الحجارة علينا ، بيد ان الرشاش الآخر كان لايزال ينثر التل برصاصه ، فقذفه خالد بقنبلة اخرى ، وندت عنه آنذاك صرخة الم ، فقد اصابه الرشاش بوابل من رصاصه ، بيد انه لم يسقط بل القى بقنبلة ثالثة تلا انفجارها سكون عميق .
ومضت لحظات . قبل ان يرتفع صوت القائد يأمرنا بالهجوم ... وتعالى صراخنا ونحن نتقدم نحو قمة التل حيث برج المراقبة ، فاحتللناه ، بعد ان قضت قنابل الشهيد خالد على جنود العدو

السبعة ..

وكان جهاز العدو اللاسلكي لا يزال يطلب البرج ، فاطفأه احدنا .

وقبيل الفجر ، انهمكنا في اعــداد قبر لشهيدنا ... وكان فجراً لم نر له مثيلاً ، اذ كانت رايتنا ترفرف عالياً فوق التل ، وكان نفيرنا يعزف لحناً حزيناً ، وفي حفـل مهيب ووري الثرى جسد الشهيد خالد .

وما انتهينا من ذلك حتى شرعنا نصلح الخنادق ونعيد بنـاء الوكر بأكياس الرمل ، فقد كان يخشى ان يفاجئنا العــدو بهجوم مباغت ، وبعد ساعة تلقينا اشـارة لاسلكية من القيـادة تطلب الينا ان نحافظ على التل المشرف على طريق القوافل ...

فكان للقيادة ما ارادت ...

لم تكن هذه المعركة الاولى التي خضتها ، انما منـــذ ان بارحت وسعيداً بلدتنا الشمالية الصغيرة وانضممنا الى جيش الانقاذ ، خضنا غمار عدة معارك وأبلينا وفرقتنا بلاء حسناً واحتللنا عدة مراكز هامة للعدو ...

***

كل شيء كان يسير سيراً حسناً ، والاتصال بينا وبين القيادة جارٍ على ما يرام ...

وارتفع صوت القائد يخبرنا بأنه تلقى رسالة لاسلكية من مقر القيادة مؤداها ان الجيوش العربية قد دخلت في هذا الفجر ارض فلسطين !. وان الجيش السوري على تمام الاستعداد لمدنا بما يلزمنا

من الرجال والعتاد ...

وما كاد يزف الخبر حتى ظهرت في الافق طائرة استكشافية للعدو ، فأمرنا القائد بان نصليها بنيراننا،غير اننا لم نصبها ، فعادت من حيث اتت ...

كنا ندرك ان العدو آت لا محالة ... وفعلاً، وفي ظرف ساعة من ذهاب الطائرة ، كان يملأ سفح التل !.

وارتفع صوت القائد يطلب ان نتهيأ للمعركة القادمة ...

وبسرعة اعددنا كل شيء لاستقباله ، رغم ضآلة عددنا وعتادنا، الذي لم يكن ليضارع عدده وعتاده ، ورحنا ونحن وراء اسلحتنا ننتظر اشارة القائد .

كان العدو بدوره يعد نفسه ، فأخطر قائدنا مقر القيادة السورية بما كان يجري ...

وماهي إلا مدة وجيزة حتى زحف العدو شطرنا زحفاً حثيثاً، وقائدنا صامت يراقب بمنظاره ، ولا يحير او يأمرنا بفتـــح بيت النار . واصبح العدو على مقربة مائة متر منا ، حينئذ ارتفـــع صوت قائدنا ، فرحنا نصليه بنيران مدفعيتنا ورصاص رشاشاتنا ، فكنا نسقط منه العشرات وهو يزحف ونحن نقاومه ونصد هجماته ، فرأى قائدنا والحالة هذه ان يخطر مقر القيادة السورية لاسلكياً لتدركنا بالنجدة ، بعد ان سقط منا عدد من الشهداء ..

ومرت ساعة وأعقبتها اخرى والمعركة بعد محتدمة دون ان تدركنا النجدة ، فحاول القائد الاتصال مرة اخرى بالقيادة. غير ان اللاسلكي كان قد تعطل من شظية قنبلة معادية ، فقطـع كل

امل في مساعدة الجيش .. وكان عددنا يتضاءل !.. والعدو مايزال مصراً على احتلال البرج ...

وعند الظهيرة تراجعت فلوله ، وما ان وصلته فرقة جديدة حتى اخذ يتهيأ ثانية للمعركة ، في حين اننا لم تدر كنا اي نجدة ..

كان عددهم يزيد على المائتي مقاتل ، في حين تقلص عددنا الى اثني عشر مقاوماً ، ورغم ذلك كان علينا ان نصمد ونصد هجماته ولا ندعه يحتل التل ...

واحتدمت المعركة ، ونحن نجندل منهم العشرات بينما هم لم يتمكنوا الا من اسقاط واحد منا بين الفينة والاخرى !..

وبعد ساعتين من المقاومـــة والصمود لم يبق منا إلا خمسة مقاومين بما في ذلك القائد !..

وسرعان ما جرح سعيد في فخذه جرحاً بليغاً !..

وسقط القائد شهيداً ! ..

ونظرت الى الشهداء ،وانا اتمتم في سري : لم يبقَ منا إلا ثلاثة وسعيد الجريح . وانهمكت في تضميد جراح سعيد في حين كان الاثنان الآخران يقاومان بشجاعة ، وأشعل سعيد لنفسه لفافة راح يجاذبها انفاسها مخففاً من حدة جراحه .

وما أن انتهيت من تضميده حتى تنبهت الى صرخة ندت من احد المجاهدين ، إذ سقط شهيداً !.. سرعان ما لحقه الآخر !

والنجدة لما تدر كنا بعد !..

وعلى حين غرة توقف العدو عن اطلاق الرصاص وعاد الى سفح التل يجمع فلوله ...

لم يبق في برج المراقبة الا انا وسعيد الجريح . حقاً ان الجيش السوري لن ينجدنا ، اذن يتوجب عليّ وحدي الصمود والمقاومة حتى الرمق الأخير ، ولا ادع البرج يحتله العدو .

كانت الشمس تميل نحو الغروب صابغة صفحة التل بلون احمر قانٍ ، والعدو ما يزال منهمكاً في تهيئة العدة للانقضاض علينا . فانهمكت بدوري اهيء الرشاش لاستقباله !..

كنت ادرك انها معركة حياة او موت !. فاصلحت اكياس الرمل ، وهيأت مكاني ، واعددت الرشاش مصوباً اياه نحو العدو ، فطلب اليّ سعيد ان اصلح من جلسته واوجهه قبالة العدو ، ثم لم يفتأ ان عاد وطلب اليّ ان اهبه المنظار ليراقب حركاته وسكناته ، وان يترأس هو هذه المعركة ويدلي اليّ بالتعليمات ، وإلا اطلق الرصاص قبل ان يشير عليّ بذلك .

فهززت رأسي موافقاً .

وبادرني قائلاً وهو يحدق من خلال منظاره بالعدو : انهم يا فؤاد يزيدون على الخمسين مقاتلاً ، فهل تعتقد انهم يحتلون التل ويمرون على اجسادنا الى غايتهم ؟..

أطرقت مفكراً لا احير جواباً فانبرى يطري رجولتي وشجاعتي ويبث في نفسي العزيمة والايمان بالمقاومة .

صمت سعيد وعاد ينفث دخان لفافته الثانية في هدوء .. في حين ، امسكت بالرشاش بكلتا يدي ، اضمه الى صدري بقوة ، فأمسى كأنه قطعة لا تتجزأ مني ، وبقيت في انتظار اشارة سعيد كي اصليهم بنيرانه ...

هاهي الشمس تميل نحو الغروب، وعيناي لا تزالان مسمرتين على حركات العدو وسكناته .

وأحسست بالدم يغلي في شرايبني حين ارتفع صوت قائدهم يأمرهم بالهجوم، فانتشروا في جنبات التل، ورغم انهم كانوا يزيدون على الخمسين مقاتلاً ، كان عليّ وحدي مقاومتهم وصد هجماتهم .

ونظرت الى يد سعيد فألفيتها ما تزال مرتفعة ، فبقيت اصبعي جامدة فوق زناد الرشاش ، في حين كان العدو يتقدم ، ويتقدم ، وأنا احس بأعصابي تتفولذ . وبنظرات كلها عزيمة رحت اطرف البصر تارة احدق بيد سعيد المرتفعة ، وطوراً بالعدو الذي يقترب ويقترب ، والدم يغلي في عروقي كحمم بركان ثائر ، وأصك بنواجذي اكاد ادميها .

وبعصبية كان سعيد يلوك بين شفتيه اللفافة ، ويده لا تزال مرتفعة ، وقد تحولت ملامحه الى ملامح وحش ضار ...

كان العدو يتقدم دون ان يقاومه احد ، فساوره الظن ان جميع من في البرج قد سقطوا وقضي عليهم ، فراح يتقدم بلا خوف ولا وجل ...

وتمتم سعيد وهو يحدق من خلال المنظار : امست المسافة بيننا وبينهم مئة متر ...

وبعد فترة وجيزة قال : ثمانين متراً !.. خمسة وسبعين متراً !.. سبعين متراً !.. ستين متراً !..

وأعصابي تكاد ان تنفجر ، واصبعي ما تزال جامدة فوق الزناد ، ويداى قد تفولذتا على الرشاش ، ودقات قلبي ترتفع اكثر

وأكثر ، والعدو يتقدم ويتقدم ، ويد سعيد ما زالت مرفوعة ، وبين شفتيه كان يلوك اللفافة بعصبية ظاهرة، ثم غمغم يقول : خمسة وخمسين متراً !!

وأحسست بأعصابي تكاد تخونني ، وأنا أبصر العدو على أقرب مسافة رأيته فيها . وكان مستمراً في زحفه فرحاً ..

: خمسين متراً !!! وهبطت يد سعيد، وتحركت اصبعي تضغط بقوة على الزناد ،فانطلقت من بيت النار الحمم تحصد العدو حصداً، فاجفل ، وتوقف عن الزحف وقد شلت المفاجـأة قواه ، في حين كنت اجندل الواحد اثر الآخر .

ثم ارتفع صوت قائدهم يأمرهم بالهجوم ، فعـادوا يتقدمون ، وسعيد يدلي الي" بالتعليمات ، وانا اسقط الواحد تلو الآخـــر ، كأوراق الأشجار حين تهب عليها رياح الخريف ...

وصمت سعيد برهة لا ينبس أو يدلي بالتعليمات ، فظننت انه قد قتل ، فصحت به : لماذا لا تتكلم يا سعيد ؟!.

فأجابني فرحاً : الا تسمع يا فؤاد؟.. الا تسمع صوت موسيقى قادمة ؟ انها لا شك موسيقى الجيش !..جيشنا السوري !!.. أجل انها هي !.. بشراك فقد ادركتنا النجدة !!!

وارهفت السمع هنيهه وجيزة ، فقد كان يحمل الاثير صوت موسيقى الجيش السوري، فاذا بي أستمد قوة جديدة منها فرحت اصطاد المهاجمين في وحشية ضارية ...

في حين كانت الشمس تميل نحو الغروب ...

والمعركة ما زالت محتدمة .

وموسيقى جيشنا السوري تقترب وتقترب .
والعدو يضؤل عدده ...
وسعيد يقهقه فرحاً ...
وانا ما زلت أصليهم بنيران الرشاش ، واجتاحتني موجة من النشوة لا تدانيها أية نشوة فصحت بهم صيحة داوية هزت ارجاء التل ، وقد ذهبت فرحة النصر بعقلي :

لن تمروا إلينا أيها الأنذال وفينا قطرة من دم ...

واطلقتها قهقهة طغت على أزيز الرصاص الذي كنت أزرع فيه صفحة التل ، وأحسست بشيء حار يتدفق من ذراعي ، بيد أنني لم أعره اهتماماً ، ولم اصغ الى سعيد وهو يقول : لقد أصابوك يا فؤاد فحاذر ...

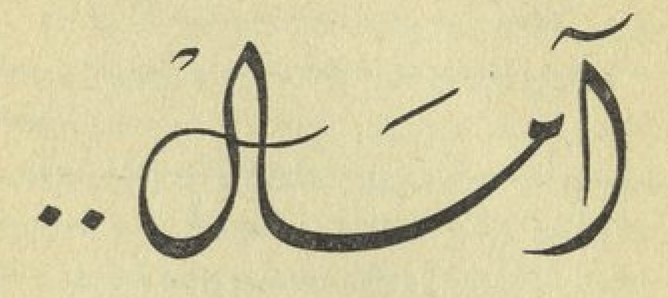
غير أنني لم أبال بما يقـــول ، او أعر اهتماماً لاي شيء ، بل واصلت اطلاق الرصاص ...

وألقت الشمس خيوطها الحمراء الاخيرة على التل تودعه صابغة صفحته وجثث العدو المتناثرة بلون كلون الدم . .

وموسيقى الجيش يرتفع صداها ويرتفع باقترابها من التل . .
وانا مازلت اقهقه وأواصل اطلاق الرصاص .

رغم ان العدو كان يضؤل عدده ويضؤل !.. ورغم انني كنت أحس في كتفي ثقلا بغيضاً !.. والشمس تغرب !.. والشيء الحار لا يزال يسيل ويسيل !.. وكتفي تؤلمني ، والظـــلام يزحف ويزحف ...

فان رشاشي لما يصمت بعد ..



انصرف جموع المهنئين والمدعوين زرافات ووحداناً وهم يدعون للعروسين بحياة زوجية هانئة ومستقبل طافح بالسعادة. وما ان خلت الشقة من آخرهم وانصرف الخدم بدورهم، حتى قام «كمال» يراقص عروسه الحسناء «آمال» على انغام «التانغو» الهادئة العذبة...

وانداحت الموسيقى من حولهما لتسمو بهما الى الملأ الاعلى، وانسابا وهما برقصتهما تلك الى الشرفة حيث كان النور خافتاً، والقمر في كبد السماء بدراً ينير بأشعته الفضية الشرفة، ويذوب في نشوة ورقة على وجه آمال الفاتن وهي تراقص زوجها الشاب كمال.

وكفت الموسيقى عن العزف، بيد انهما لم يكفا عن الرقص، بل ظلا متلاصقين يحدج كل منهما الآخر بنظرات حالمة لها اكثر

من معنى ، ولا ينبس ببنت شفة ، وقطع الصمت الرائن على ارجاء المكان صوت كمال يقول : آمال ، ان هذه اللحظة في حياتي يا آمال لهي من اجمل واعذب اللحظات ...

وما هي إلا هنيهة وجيزة حتى اردف يقول متسائلا : وانت يا حبيبتي ، هل مرت في حياتك لحظة تقارب بسعادتها وعذوبتها هذه اللحظة ؟ .

فاصطبغت وجنتاها باحمرار الخجل ، ونكست رأسها في حياء العذارى ولم تحر جوابا .. في حين اعاد كمال السؤال للمرة الثانية وهو يدنو بوجهه من وجهها ويلفحه بانفاسه الحارة ، فرفعت رأسها قليلا لتتلقى قبلته الملتهبة ، بيد انه اجفل حين احس ببرودة شفتيها ، فقد كانتا باردتين كأنهما ذوب الثلج .

وشعرت آمال انها لا تبادله العاطفة ، فنفرت وانفلتت من بين ذراعيه ، وسألها باستغراب عن السر ، فتزاحمت الدموع في مقلتيها وأحست بأن نوبة من الدوار قد اصابتها ، وكادت تسقط على الارض مغشى عليها ، لولا انها سارعت وامسكت الحاجز بكلتا يديها لتتفادى السقوط ، وتناهى الى سمعها وهي في حالتها تلك صوت زوجها كأنه آت من واد سحيق الغور : آمال ، هل تشكين امراً يا آمال ؟ .. ام ان قبلتي لم ترق لك ؟ ..

***

— قبلة ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ؟. لقد التهمت احمر شفتيّ يا فؤاد ، وتكاد تلتهم شفتي وأنت تقبلني ، وكأنك لم تقبلني قبلا ؟! متى تعرف السبيل الى الارتواء من القبل ؟

وقطع فؤاد كلامها كرة اخرى بقبلة جديدة طويلة دون ان ينبس بكلمة، وراح يضغط صدرها بصدره ضغطاً رفيقاً، ورفع شفتيه من فوق شفتيها ليتنفس فعادت تقول: ماذا ستقول والدتي اذا تنبهت الى شفتي وهما على حالتهما هذه؟.

ولم يدعها تزيد وإنما لفها بذراعيه القويتين وضمها الى صدره، وارتفعت طقطقة القبل تطغى على الامواج وهي تلامس وتعابث برفق الزورق المنساب بخفة ورشاقة على غير هدى في عرض البحر الهادىء الساكن في ذلك الاصيل، وقد نسي من به الوجود وما فيه، وتاها عن كل شيء، فتاه الزورق بدوره في عرض اليم، وليس من يوجه دفته..

– اما كفاك تقبيلاً؟. لنعد يا فؤاد الى الشاطىء فقد ابتعدنا عنه كثيراً.

قالتها بصوت المرتاب في قوله، فخرج صوتها كأنه الهمس، وألقت برأسها الى الوراء، فراحت النسمات اللطيفة تعبث بخصلات شعرها الذهبي المسترسل...

بيد ان فؤاد لم يجب بشيء، اذ انه لم ينبس طوال هذه الرحلة الممتعة الا بكلمات قلائل. فهو رجل عملي يمقت الكلام فقد علمته صداقة البحر الطويلة الصمت الطويل فهو صياد عشق البحر وامتهن الصيد وتلقن من تجارب الحياة دروساً كثيرة من بينها ان الكلام لا يجدي نفعاً في مثل هذه المناسبات والحالات، وانما الاعمال والعواطف الزاخرة هي وحدها التي تقوم مقام الحديث.

وراح وهو في جلسته تلك يحدق بهذه الفتنة التي القت برأسها

الى الخلف بغنج ودلال .. وعيل صبره وهو يحدجها ، فأطلق العنان لأ نامله فغرزها في جدائل شعرها يعابثها ، ثم حملها بين ذراعيه العامرتين وضمها الى صدره واطبق شفتيه على شفتيها ، فاسبلت آمال اهدابها الطويلة لتحجب عنه عينيها الخضراوين الفاتنتين ، واجتاحتها وهي بين ذراعيه نشوة لا تدانيها نشوة فهمست تقول : كم احبك يا فؤاد ، كم اعبدك ..

اما هو فاستوسل في تقبيلها،فتملصت من بين ذراعيه لتسأله :

هل تشعر يافؤاد بما اشعر به نحوك من حب جارف ؟ ..

: اذن لماذا اصطفيتك دون سائر العذارى لتكوني خطيبتي اليوم،وزوجتي غداً .

- ابهذا القدر كلفت بي ؟!.

فأومأ برأسه ان نعم

فألقت آمال بنفسهابين ذراعيه وغاباعن الوجود بقبلةحارةطويلة .

***

بيد ان القدر الساخرلم يدع الزوجين الهانئين يرتعان في عواسل الشهور التي تعاقبت على زواجهما السعيد كوميض البرق ..

وكانت آمال تحلم بكل شيء الا ان يعود اليها زوجها فؤاد ذات اصيل محمولاً على اكتاف زملائه الصيادين جثة هامدة ، والدم يقطر من جسده !!!

فقد انفجر الطوربيد بين يديه قبل ان يلقيه في عرض البحر فأرداه للحال قتيلاً !

وكانت الصدمة أقوى من ان تتحملها اعصاب آمال التي لم

تألف الصدمات ...

وها هي ذي تعود الى منزل اسرتها ، تعود كسيرة القلب ، مهيضة الجناح متشحة بالسواد .. وبقيت طوال عـــام بمعزل عن العالم ، لا تعرف الابتسامة الى شفتيها سبيلا !. ايامها كلها اسى ، ولياليها برمتها نحيب وبكاء .

وما كاد يتلو ذلك العام عام آخر ، حتى تقدم يطلب يدهـــا احد الشباب ، فلم تمانع اسرتها الفقيرة ، وكيف تمانع وهي تريد ان تنقذ آمال مما تعانيه من الآلام والاحزان ...

وانصاعت الى مشيئةذويها صاغرة ، وكيف تعاند او تقـاوم وهي العبدة الذليلة التي تعيش عالة على اسرتها الفقيرة المعدمة .

وفي حياتها الزوجية الثانية عاشت آمال بجسدها لزوجها الثاني «فتحي» ، اما روحها ،فقد كانت بعيدة ، بعيدة جداً عن المنزل الزوجي ، كانت تجول بين جدران منزلها الأول ،تبحث عن سعادتها الضائعة وحبها المفقود .

لقد عاشت تحيا مع الماضي ، ماضيها بافراحـــه ومسراته ، واحزانه وآلامه .

وغاظ زوجها منها فتورها ، وألح بالسؤال وهو يريدالوصول الى كبد الحقيقة ، وظل يلح ، فلم تجد غضاضة او ضيراً من ان تصارحـــه بالحقيقة الجارحة المرة ، فسقطت كلماتها عليه سقوط الصاعقة ، واحس بالارض تميد تحت قدميه ، وباحلامه العذاب تتحطم دفعة واحدة .

ومنذ تلك الليلة تحولت حياتها الزوجيـــة الى جحيم مستعر

لا يهدأ ولا يستكين ، واحتار كيف سيتصرف ، وكيف سيصلح الامور ، بيد ان كل محاولة بذلها باءت بالفشل الذريع ، وأبى ان يحيا مع زوجة تعيش مع ماضيها البعيد لا تشاركه بآماله واحلامه ، فكان الطلاق اذ وجدا فيه ضالتهما ، وانعتاقاً لكل منهما من ربقة الآخر ..

وعادت آمال كرة اخرى الى منزل اسرتها ، الى سابق حياتها الخشنة القاسية ، في بيئة يكتنفها الفقر ، لتكون حصيلة كل يوم من ايامها خصام جديد ينتهي بهزيمتها وانفرادها في غرفتها تبكي سوء طالعها .. وحن فؤادها الى زوجها « فتحي » والى الحياة السعيدة التي كانت ترتع في بحبوحتها وهي في كنفه ، وندمت ولات ساعة مندم ، فقد كان الطير قد حط في مكان بعيد عن مناها .. ولم يعد ثمة رجاء في عودته .

... حتى كان ذات يوم ، وفي حفلة خيرية ، التقت بكمال ، الشاب اليافع ذي الرجولة الكاملة والشخصية الجذابة . وكان ينحدر من اسرة ثرية عريقة في الحسب والنسب ، فبهره جمال عينيها الخضراوين ، وأفتتن بقدها المشوق السمهري ، وأعجب بقسمات وجهها الرائع التنسيق . فقد طغى جمال آمال على كل أنثى في الحفلة .

وكان « كمال » من العقل بمكان بحيث انه لم يصغ الى أحاديث الناس ولغطهم المتضارب حول آمال ، وثارت أسرته المعنة في رجعيتها حينما عرض رأيه بالاقتران بها . اما هو فقد قابل ثورة اسرته بفتور وبرود ، وسرعان ما وافق ذووها وهم في دهشة من هذا الامر .. فهيأ كمال منزلا زوجياً بعيداً عن جو اسرته ، وأثثه بفاخر المفروشات ، وهيأ كل أسباب

السعادة والحياة الهانئة لزوجته !..

وكانت حفلة العرس من الحفلات النادرة التي شهدتها بيروت .

***

- جرعة واحدة من شراب « الجن » بالليمون تعيد اليك الرشد يا آمال .

نفضت آمال عنها كبوة احلام ماضيها التي مرت في خاطرها كوميض البرق .

ورفعت رأسها المنكس ورنت تحدق الى « كمال » بعينيها الزائغين المغرورقتين بالدموع وبيده كأس الجن يدنيه منها وقد ارتسمت على ملامحه علائم الحزن والاسى العميقين ، وهو يشعر بان مصير زواجه منها سيبوء بالفشل شأن زواج « فتحي » .

في حين ظلت آمال بوقفتها تلك وقد تزاحمت الأفكار متراكضة في رأسها الصغير ، فسعادتها وشقاؤها رهن بنانها وطوع رغبتها ...

ولكن ، هل بامكانها ومقدورها ان تحب كمال كما احبت « فؤاد » حبيبها الاول ؟. وهل ستجد لكمال متسعاً في قلبها الى جانب حبها البكر ؟.. ولكن لا !. وعز عليها ذلك كثيراً ..

كما عز عليها ان تحطم حياة زوجها كمال ذي القلب الكبير الطيب فتفجعه بآماله واحلامه فيها .. لتعود ثانية الى منزل اسرتها طالقة كسيرة القلب مهيضة الجناح .

وبيد مرتجفة واجفة تناولت الكأس من يده وأتت عليه في جرعات !.

- ما بك يا عزيزتي آمال ؟..

ومن خلال عينيها الزائغتين المغرورقتين بالدموع .. حدجته بنظرة غريبة لم يفقه لها معنى ، في حين كانت دموعها تسيل خطين دقيقين فوق خديها الناعمين الموردين ليختفيا تحت ثوب زفافها الزاهي البياض ...

فأعاد كمال السؤال للمرة الثانية : ما بك ياعزيزتي آمال ؟..

وخرجت آمال - لاول مرة - عن صمتها وتحركت شفتاها ببطء وانبعث صوتها هادئاً خلال ابتسامة باهتة المعالم ، وغمغمت تقول: انها اغماءة السعاده يا كمال .. انها دموع الفر ..

ولم تستطع الاسترسال في الحديث ، انما اجهشت في البكاء ، ولم تتمالك نفسها ، فارتمت على صدره تبكي وتنتحب ..

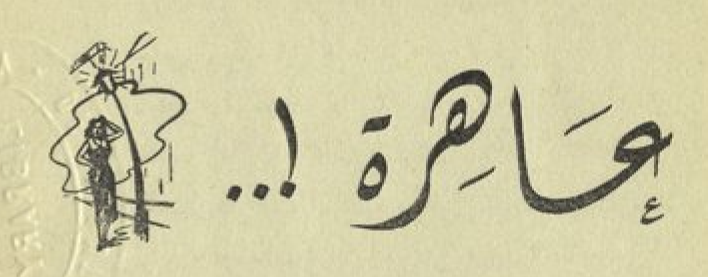
وران الصمت على ارجاء المكان ، ومرت برهة كأنها الاجيال فلم يدر واحدهما كم من الوقت مر وهما في وقفتها تلك .

لا ، لم تصدق آمال حين قالت انها دموع الفرح ، انما كانت تبكي حبها الاول الذي خانته صاغرة ، وودعته الى لحده بالرغم منها ..

واشرق وجهها بابتسامة عذبة ، ابتسامة من يستقبل حياة جديدة ، ويبدأ حباً جديداً ..

ورفعت اليه شفتين كلهما دعوة ، فضمها زوجها الى صدره بحرارة وقوة ، في حين كانت قطرات الدموع تبلل تلك الشفاه الوالهة ..

وغابا عن الوجود في جحيم مستعر من القبل .. في يوم ميلاد سعادتها الجديدة .



عاهرة !..

لا .. لم اذرف طوال حياتي حتى ولا قطرة واحــدة من الدموع ... لتبلل وجنتي الضاحكين ابداً ، ولم تعرف العبرات والاحزان الى نفسي سبيلاً منذ وعيت حقيقتي ، ولا اذكر انني تأثرت يوماً لشيء ، كما تأثرت وأودى بي الحزن تلك الليلة التاريخية وانا اشاهد صديقي « عفيف فؤاد » يمثل على خشبــة المسرح المأساة الاجتماعية العنيفة « عاهرة من فلسطين » فاغرورقت عيناي بالدموع ، وظلت العبرات تتراقص بين اهدابي طوال التمثيل .

وفي آخر فصل لم استطــع السيطرة على اعصابي ومشاعري ، فأجهشت بالبكاء ، ورحت انشج وأنتحب بصمت كالطفل الذي يخشى عاقبة بكائه ، على الرغم من ان ممثلاً مهما تقمص دوره وعاش فيه لم يفلح ولو مرة واحدة بالسيطرة على مشاعري ليتركني احلق في اجواء اللانهاية كما حييت محلقاً في تلك الليلة مع اشخاص وضحايا « عاهرة من فلسطين » .

فقد احسست ان اشخاص المسرحية يمتون لي بصلة القرابة ، وان صلة الرحم تربطني مع مشردي جنوبنا السليب ..

لم اكن الوحيد المنسجم ، وانما مسحت الدموع من مآقي ، ورحت افحص الوجوه التى تحيط بي ، واعمل نظري في الجمهور المشدوه المأخوذ وقد عرف حقيقته فصدمه واقعها المرير ، فراح يسبح في لجة من الحزن والاسى العميقين .

أسدل الستار عن تلك المأساة وأعلن المذيع بصوت متهدج باكٍ عن نهايتها ، دون ان يحرك احد من جمهور النظارة ساكناً . ففي اعماقه تستعر نيران لا تخبو هي ضرام مستمر وأجيج لاهب ، لا يهدأ او يستكين . وقد انجلى الواقع ، الواقع المؤلم المذيب ليعرف ما هي فلسطين بالنسبة لأمته ، وأي واجب هو ملقى على عاتقه ...

ومرت برهة صمت عميق ران على الصالة كالسكون الذي يسبق العاصفة دون ان يضج الجمهور بالتصفيق اعجاباً - كما درجت العادة - على الرغم من بلوغ جميع الممثلين الاوج ، خاصة عفيف .

ارتفع الستار للمرة الثانية وأحنى الممثلون رؤوسهم للجمهور ، حينئذ فقط استيقظ احدهم من خدره ، وطفق يصفق ويصرخ بالممثلين مبدياً اعجابه ، فكان تصفيقه وصراخه حافزاً لتنبيه الجمهور الذي اذهلته حوادث المسرحية ، فضجت الصالة بالتصفيق ، والصراخ المجلجل راح يشق عنان السماء . ومرت دقائق وعاصفة الاعجاب ما زالت حامية الوطيس مسعورة تأبى الاستكانة ...

وخرجت عن وقاري ورحت اصفق بدوري ، وأحي الممثلين

مثنياً على مواهبهم بصوت عالٍ كأن مساً من الجنون أصابني...
واخيراً ، انفصم عقد الجمهور بعد ان اعرب عن اعجابه بالمسرحية وتقديره للمثلين على احسن صورة وعاها ، وبعد ان ارتفع الستار واسدل مرات عدة ...

.. غصت في مقعدي واعتمدت رأسي بين يدي ورحت افكر وانا ما ازال ثملاً من تأثير المسرحيـــة ، فذهني شرود واعصابي منهوكة وقواي خائرة محطمة . واحسست بيد من الفولاذ تضغط على نياط قلبي محاولة تمزيقه ، ورحت افكر .. غير ان تفكيري ارتكز على نقطة جوهرية واحدة : فلسطين ، ومشرديها ، والسبيل الى غسل العار عن جباهنا واعادة الحق الى نصابه ؟..

وانتهيت اخيراً الى الواقع : ان الحق يصبح باطلاً ان لم يحط بسياج القوة ، ولكن هل القوة هي كل شيء ؟

وعدت اسبح مصارعاً لجج تفكيري وآرائي ناسياً كل ما يحيط بي ، غير مدرك ان الصالة قد خلت من الجمهور ، ولم يعد في المسرح سوى الممثلين يغدون جيئة وذهوباً في الكواليس لخلع ألبستهم وازالة المكياج عن وجوههم . غير ان ضجيجهم كان يصلني صاخباً عاتياً كمن يجلس بقرب خلية من النحل . ورغم ذلك بقيت بعيداً عن كل شيء ، الا عن تفكيري اناقش نفسي : هل القوة هي كل شيء ؟. ووجدت الحل اخيراً : ان القوة ليست الا عنصراً متمماً ، اي البند الثاني . اما البند الاول فهو وعي الشعب وادراكه ليعرف حقيقته ويؤمن بها ايماناً كلياً حينئذ يمكنه الانطلاق مدعماً انطلاقه بالقوة ليغسل العار عن جبين أمته .

: ما للحزن يومض في وجهك والألم المذيب يهصر قلبك فتشي بها عيناك وتوحي ملامحك بما يعتمل في اعماقك ؟!

رفعت رأسي احدق بهـــذا الفضولي الذي قطع علي سلسلة تأملاتي وافكاري ، وكدت اقوم لاخاصمـه ، غير ان الابتسامة سبقتني لتستقر على شفتي لأهمس قائلاً كمن اوقظ من حلم جميل : عفيف ؟!.. أأنهيت عملك ؟

فتبسم ولم يجب وانما مد ذراعه ليتأبط ذراعي وهو يبادرني قائلاً :

بالله عليك يا انيس أصدقني القول . ما رأيك بالمسرحيـــة والتمثيل وبقية العناصر الفنية ؟

أجبته ونحن نسير شطر الباب الخارجي : لقد كانت جـــد رائعة ، انها قطعة من الحياة ...

اجاب ضاحكاً : تقول ذلك بحكم الصداقة .

وباستنكار قاطعته ونحن نجتاز الباب الى الممر المؤدي الى الشارع : كلا ، بل هو الواقع الذي يجب ان يعلن .

وبادرني قائلاً: هل تعلم يا انيس ان المسرحية هي من تأليفي؟!

قلتها باستغراب ودهشة : من تأليفك ؟!..

اجاب باسماً : أجل من تأليفي ! .

فتحت له باب سيارتي وانا بين مصدق ومستغرب ، واحتلت مكان القيادة .

أخذت السيارة تنساب بخفـــة ورشاقـة فوق الاسفلت ، وانجرفت في خضم تفكير عميق مداره صديقي عفيف ، وتلك

الحادثة التي غيرت مجرى حيـاته فحولته من ممثل ساخر يبكي الناس من فرط الضحك ولا يدعهم يهدأون لحظة واحـدة في مقاعدهم . هكذا تركته قبل سفري للمهجر منذ عام تقريبـاً ، وعدت لأجده يبكيهم بكاء مراً وهو يمثل الدراما العنيفة ، ويدعهم يشعرون بالعبء الجسيم الملقى على كل فرد من افراد الأمة تجاه بلاده .

– ماذا دهاك ؟.. بالله عليك يا انيس وفي أي لجة تسبح ؟...

قطـع عليّ عفيف مرة اخرى تأملاتي وبادرته : افكر في الطريقة التي خولتك بـلوغ هذه المرحلة من التمثيل .. بحيث اصبحت كأحد عمالقة الشاشة في الغرب .

وأحس عفيف من سؤالي اني أبغي معرفة ماوراء الأكمة .. فأجابني بخبث : او لعلك تريدني ان أقص عليك ما حدث معي فتحولت من الكوميديا الى الدراما ؟

نظرت اليه مشدوهاً وغمغمت قائلاً : يالك من ساحر عظيم وكاشف للغيب فهذا كبد ما أسعى لمعرفته ، ولكن بالله عليك من اين عرفت ما يجول في خاطري ؟

حدجني بنظرة تمثيليـة وهو يجيبني : لست الاول الذي يطلب اليّ معرفة ذلك ... الجميع يستوضحونني بالحاح عن السر ...

سكت برهة وراح يجاذب لفافته أنفاسها ويجمع شتات افكاره ثم قـال : حقاً انها قصة طريفـة مؤثرة ، تلك التي غيرت مجرى حياتي !.

وركن الى الصمت . وبعد هنيهة أكمل قائلاً : كما تعلم يا

صاحبي أن من عادتي دائماً وأبدا أن أراجع الصحف والمجلات خاصة زاوية الوفيات فهي زاويتي المفضلة وهي التي تستأثر انتباهي قبل غيرها من الزوايا. فأنا أختار أبطال قصصي من أسمائهم كي لا أتعرض لمس بعض الأشخاص بمسرحياتي الساخرة فيسبب لي ما لا تحمد عقباه . وهذه العادة اتبعتها منذ زمن بعيد وقبل ذهابي الى فلسطين مع الفرقة حيث قدمنا هناك بعض المسرحيات والحفلات التي حازت القبول والاستحسان من جميع الطبقات في الجنوب. حيث كنا خلالها موضع حفاوة الفلسطينيين ، بحيث أن أحدهم ويدعى على ما أذكر ، « توفيق » ... أجل « توفيق حجار » ، وهو من كبار تجار مدينة حيفا ، أصر على أن نقيم في قصره المدة التي قضيناها في حيفا ، وكانت زوجته الشابة وتدعى « كوثر » على جانب كبير من الجمال ودماثة الأخلاق ، فكانت تقوم مع خدم القصر بخدمتنا على أحسن صورة ، فكنا جميعاً نناديها بيا أختاه ..

وكان لتوفيق ثلاثة أطفال كبيرهم في الخامسة والثاني في ...

وبلجاجة قاطعه محتداً : بالله عليك كفى ثرثرة ولا أريد منك أن تقص عليّ ما أسمعتني إياه قبل سفري للمهجر عشرات المرات ، وكل ما أريده أن تبدأ من حيث طرأ التغيير على مجرى حياتك.

- لا بأس ...

واعتدل عفيف بجلسته ، وأردف يقول : أظنك تذكر ليلة قدمنا مسرحية البخيل لـ « موليير . » كان ذلك قبل سفرك للمهجر بيوم واحد حيث دعوتك وأسرتك لحضور المسرحية.

أجبته : أجل ، أذكر ذلك اليوم جيداً ، وقد ضحكنا كثيراً

بحيث أغمي على والدتي ، وخرج والدي من الصالة وهو يلعنـك وقد قتلته آلام « خواصره »

وتابع يقول : وبعد انتهاء المسرحية أوصلتني كما هي العادة الى قرب منزلك في حي « السراسقة » وسدى حاولت ان تقنعني كي توصلني الى منزلي الكائن « في زاروب الوطواط » في ذلـك الحي الضيق المعتم ، فقـد اقسمت على انك لن توصلني وأنني سأقطع المسافة بين منزلينا سيراً على الاقدام ، اذ كانت الليـلة مقمرة ، والسكون يشمل المدينة ، وكنت اتلذذ كثيراً لسماع وقع اقدامي على حجارة الزقاق في ذلك الليل البهيم .

ونظر اليّ عفيف ، ولما ألفاني مصغياً اليه كل الاصغاء اكمل قائلاً : ودعت امرتك ليلتها ، وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ، فسرت في طريقي وانا ادمدم أغنية بصوت يكاد لايسمع .

سرت في الازقة المقفرة الموحشة حتى من حراس الليل الذين اخذتهم سنة من النعاس .

وفجأة !.. احسست بأقدام تتبعني ، فأسرعت الخطى وأنا احاول ان استرق النظر الى الشبح الذي يطاردني !.. غير انني لم أتميزه بظلام الليل . وشعرت ان الشبح بدوره يسرع الخطى ، فعرجت على زقاق محاذٍ وانا خائف وجل ، وكنت احس لدقات قلبي صوتـاً كوقع المطارق ، فاذا به يلف نفس الزقاق ، فجالت الف فكرة وخاطره في مخيلتي ، وأردت التأكد من شخصه ، وبت احسب له الف حساب .

وفي احدى زوايا الزقاق الضيقة المظلمة وقفت بحيث لم ادعه يشعر بي

واخذت ارهف السمع ووقع اقدامه يقترب مني بسرعة، وما ان حاذاني حتى استطعت تمييز ملامحه، فقد كان الشبح ويا للعجب، امرأة !!. امرأة تطاردني ؟!. وتوقعت ان تكون شاهرة مسدسها، ولكنها لم تكن كذلك، إنما وقفت في الظلام وراحت تجيل الطرف هنا وهناك، لتستطلع عن المنزل الذي ولجته، وقد تسارعت انفاسها .

ولم ابغ ان اطيل حيرتها، فبرزت من الظلام، ودنيت منها فألقت بنفسها عليّ واثبتت اناملها في ثوبي، غير ان المفاجأة ألجمت لسانها، فبادرتها متسائلا : ماذا تريدين مني ؟. هل من خدمة ؟..

فحدجتني بنظرة وانفاسها ما زالت تتسارع، واستطعت ان اقرأ ملامحها بعد ان ألفت عيناي ظلام الزقاق، وسألتني قائلة : ألا تريد امرأة ؟

وباستغراب اجبتها : امرأة ما ؟

قالت : امرأة تقضي معها ليلة حمراء !..

وأرسلت ضحكة اقتلعتها من صدرها اقتلاعاً .

وتقززت نفسي لمرأى امرأة مجهولة تعرض جسدها على الرجال بهذه الطريقة الرخيصة المبتذلة، قلت : ليس بي حاجة الى امرأة.

فراحت تحاول ان تغريني بمعسول كلامها وهي ما زالت متشبثة بثوبي .

وادنت وجهها من وجهي وراحت تحرقني بانفاسها الملتهبة وهي تزيد : لا تهب مغبة خلوتك بي فقد جعلت ..

فبادرتها وانا احاول تخليص اطراف ثوبي من اناملها: قلت لك ليس بي حاجه الى امرأة .. اليك عني .

غير انها ظلت عالقة بي وعادت تغريني بكلامها ، فقاطعتها بلطمة مني على وجهها الذي كاد يلامس وجهي وقد تطايرت شرارات الغضب من عيني وانا اصرخ بها كالملسوع : قلت لك اليك عني ... اليك عني ايها الحية الرقطاء ..

ورحت احاول بجهد تخليص اطراف ردائي من قبضتيها، ولكنني لم افلح . فراحت قدماي تتحركان بخطى وئيدة فتنسحب باثري مع ثوبي لتلاحقني بخطواتها التي تقاوم سيري ، وهي ما انفكت تمطرني بتوسلاتها وكلمات الاغراء ، حتى اصبحت بعد جهد ولأى شاقين على مقربة من عمود النور ، ورحت على ضوء المصباح احدق بها فالفيتها متهدمة الجسم كأنها هيكل بشري ، ذات صدر خائر ضامر ، كما ان الشيخوخة ادركتها سريعا على الرغم من انها لم تتجاوز بعد عقدها الثالث ، وثبت حدقتي عيني في وجهها الشاحب الهزيل وعينيها الغائرتين وشفتيها اللتين طلتهما بالاحمر وقد ارتسمت في مآقيها صورة الاعياء والسهاد الطويل . ولما القتني احدق بوجهها باستغراب وانا لا انبس او احير تمتمت تقول : انني لست جميلة وجذابة كبقية فراشات الليل ، ولكن ...

وحاولت مقاطعتها ، غير انها عادت تتكلم وتضحك تارة وتبتسم اخرى ، اما انا فلم اكن اعي شيئا مما تتفوه به .. سوى انني رحت افكر بعمق بهذه المرأة ، ولكنني لم اجد لتفكيري قبساً من نور يبدد ظلمات تخيلاتي .

وأفقت من تأملاتي على شفتيها الباردتين وهما تلتصقان بشفتي بقبلة تمثيلية فابعدتها وانا اصرخ بها ثائراً : قلت لك اليك عني .. اليك عني فليس بي حاجة الى امرأة .. ولا اريد ان ادنس نفسي بـك وانا رجل متزوج .. اليك عني ايتها العاهرة ..

أجابتني كالملسوعة وقد تراقصت دمعتان كبيرتان بين أهدابها الطويلة : أقسم انني لست بعاهرة كما تظن ويخيل اليك ...

وبسخرية أجبتها: كلا فأنت قديسة...

قالت : أقسم انني لم أكن يوماً من اللواتي يبعن أجسادهن للرجال ويدنسن أعراضهن ويعفرن جباههن بالعار والرذيلة حتى ولو في سبيل كل كنوز العالم ... ولكن ، الفقر ، والجوع ، والحرمان ،والتشرد ، ولي أربعة أطفال كبيرهم في الحادية عشرة وقد استشهد والدهم ليتركني أرملة ويتركهم يتامى فأصبح مرغمة من فراشات الليل وصائدات الرجال .

ولم تستطع الاسترسال ، وقد قطعت الغصات نبرات صوتها فأخذت تنتحب وتنشج ، وألقت برأسها بدعة على صدري ، وهي ما فتئت تبكي بكاء يقطع نياط القلوب ، وأحسست لأول بعاطفة وقادة تجيش في صدري نحو هذه البائسة ورفعت رأسها من فوق صدري في حين كانت دموعها لا تزال تنهمر من مقلتيها فوق وجنتيها الشاحبتين فعنقها لتختفي تحت ثوبها ، وعادت تقول : لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ اولم أرق لك ؟ تكلم ..

غير انني ظللت صامتاً أحدق في وجهها فأكملت تزيد : هيا رافقني الى اي مكان تريد ..

ورغم ذلك فقد بقيت في مكاني ،فأخذت تسحبني وهي تقول : لماذا لا تسير ؟.. خذني ، خذني بحق السماء ..

وعادت تسحبني من أطراف ثوبي وانا ما زلت ساهياً بالتحدق في قسمات وجهها ، فأردفت قائلة متوسلة : لا تأخـــذني كامرأة لجمالي وشبابي بل بدافع الرحمة والعطف عليّ وعلى اطفالي الصغار الذين يضجون تحت سياط المرض والجوع ... خذني بحق السماء من اجلهم ..

أفقت من خدري عليها وهي تسحبني فأحسست انها تتكلم بلهجة تمثيلية ليس الا ...

لا ،لم تكن هذه المرة الاولى التي اخدع بمثل هذه المرأة صائدة الرجال ، انما خدعت بكثيرات من امثالها ، وجميعهن كن يمثلن نفس الدور ، فكنت انفحهن في كل مرة بما كان معي من مال ليتركنني امضي في سبيلي.

ولكن لن اذهب هذه المرة ايضاً ضحية هـــذه الأفعى الرقطاء ، فأبعدتها عني وانا اردد بلهجة تمثيلية : انني لأشعر بألمك وعذابك المرير وما تحسين به، ولكن ، آسف لانه ليس بمقدوري ان أمد لك يد المساعدة، واستأذن لعدم استطاعتي ان اقضي معك ليلة ... سوداء ...

وبلجاجة اجابتني : ولكن هـــل ستذهب وتدعني واطفالي الجياع مرضى وانا مشردة ...

واسترسلت في البكاء والنحيب .

اجبتها : كفاك تمثيلاً !.. انا بدوري ممثل ، وممثل قديم ، بالله

عليك اصدقيني القول، هل تمثلين نفس الدور منذ أمد بعيد حتى أتقنته لهذه الدرجة ايتها العاهرة الماكرة ؟

اجابتني ناحبة ناشجة : بحق السماء لا ترمني بهـذه الكلمات القذرة ، أتظنني يا هـذا أمثل ؟ .. كلا أنا لم اعتد التمثيل ، ولم اصعد يوماً خشبة المسرح ، انا لا امثل واقعي المحلولك السواد . انما أنا فقيرة مشردة أبيح جسدي لمن يدفع لي لقمـة العيش الذليل لأحمل لاولادي خبزاً مجبولاً بدنس امهم وعارها !.. انا لست من اللواتي يركضن وراءكم في سبيل ملذاتهن ورغبات اجسادهن ، وانما في سبيل تخفيف وإسكان آلام اطفالي ...

فقاطعتها وقد خطر على بالي سؤال طرحتـه عليها من باب التسلية قائلاً : ولكن ما دمت هكذا تصورين نفسك شريفـة عفيفة النفس فلمَ لا تبحثين عن عمل وتبتعدين عن هـذا الطريق الذي لا يناسب مقامك الرفيع ...

وغمغمت تقول وهي لا تزال تبكي : طرقت ابواباً كثيرة لاعمل لديهم كخادمة ، ولكنها أغلقت في وجهي لان اصحاب البيوتات يبحثون عن خدم غير مهدمي الجسم وخائري القوى مثلي ، وقد امتلأت البلاد من مشردي الجنوب ، لذلك هم يختارون قوينا ويهملون ضعيفنا ... حاولت ان استجدي ولكن لم يرحمني احد منهم وكانوا يشيحون بوجوههم عني قائلين بسخرية وتأفف : اذهبي وفتشي عن عمل ... ولكن أين العمل ؟.. أين العمل ؟.. فلم أجد بداً من سلك هذه الطريق الوعرة ...

وعادت الغصات تقطع أوتار صوتها فتحبسه عني تارة وتخرج

أخرى مشنجاً كالهمس مبهم المعالم ...

اما أنا فلم أحر جواباً ، وانما ظللت صامتاً افكر ، فتابعت تقول : اني على استعداد لان اعمل في خدمتك مقابل اطعامي واولادي ! .

أجبتها : ولكنني لست ميسور الحال حتى أقبلك في خدمة كوخي ...

بكت وهي تقول : اني شقية في الحياة شأن أبناء أمتي ، فمنذ ولدت كتب لي الشقاء لأتشرد من بلادي ،فأنقلب هنا فوق مزابل المجتمع ، المجتمع الذي يظنني غريبة عنه .

توقفت عن الكلام وتابعت بعد هنيهة وجيزة تزيد : أعطني مالاً دون أي مقابل ... أرجوك ...

وانكبت على يدي تلثمها ، فدفعتها بقوة وأنا أردد بحنق : لا أعرف أية رياح عاصفة مزمجرة القت بك في طريقي ؟.. قات الك إليك عني ... إليك عني ...

غير انها عادت من جديد تتشبث بي وانكبت على يدي محاولة تقبيلها ، وهي تقول : أرجوك ، أقبل يديك وقدميك ، اعطني شيئاً ... أعطني شيئاً ...

فنهرتها قائلاً : على كل حال لن يجدي كلامك هذا معي نفعاً فابحثي عن غيري لتغرري به ...

واطرقت برهة تفكر ، وسرعان ما رفعت رأسها وأجابتني بحدة : ولكن جميعكم قساة القلوب ، جميعكم بلا ضمير وقدحجرت الحياة الرافهة قلوبكم ، وقدت ضمائركم من حجر ... جميعكم ذئاب ،

فلا تريدونني لأنني لا أروق لكم،فلو كنت شابة لما أحجمت لحظة واحدة انت وغيرك ، يا دعاة الشرف، عن الجري باثري...

وعادت تحدق في وجهي .. لترى مقدار تأثير كلماتها عليّ ، غير ان لهجتها لم تفد او تحرك مشاعري وبعد برهة وجيزة من الصمت قالت : ولكن ما رأيك لو وهبتني ليرة واحدة كصدقة لابتاع بها طعاماً لاطفالي ؟.. ارجوك ، فقط ليرة واحدة لاربعة اطفال يضطجعون جوعاً ...

القيتها على الارض بدفعة واحـــدة مني ، ورحت اسرع في خطواتي ... غير انها لم تلبث ان نهضت . . واخذت تركض بأثري حتى حاذتني وهي ما انفكت تتوسل قائلة : لا تذهب بالله عليك ، لا تدعني ارجوك ... انك آخر شخص ألاقيه هذه الليلة، فقط ليرة واحدة ادفعها لي كيفما اردت ... نصف ليرة ، اواه انني لا استطيع ملاحقتك .. هلا اخذتني معك الى المنزل لتهبني قليلاً من الخبز وفضلات من طعامكم ؟..

ولما لم احر جواباً اكملت : ارجوك... فضلات طعامكم...

ولكنني لم اجبها بشيء ورحت اغذ المسير. فلحقتني وامسكت كرة اخرى بثيابي، فثرت في وجهها مزمجراً قائلاً: اغربي عن وجهي..

فحدجتني بنظرة لا ولن تستطيع الايام مهما توالت ان تمحوها من مخيلتي ... نظرة اخترقت صميمي ، فنظرت الى عينيها وقد التمع فيهما العذاب المذيب وهي ما انفكت تبكي وتنشج ،فخشيت ان تؤثر عليّ ثانية ،فضغطت على ساعديها بشدة بحيث تركت ثوبي ، وانا اقول :

قلت لك انني بدوري ممثل فلا تحاولي ان تندمجي في دورك ..

اجابت : اقسم انني لا امثل ، واذا كنت لا تصدقني فتعال معي لآخذك الى كوخي الصغير فأريك بأم عينيك اطفالي الاربعة يفترشون الارض ويلتحفون سقف الكوخ ! . ان كوخي ليس بعيداً جداً عن هنا ... انه في شارع ... ال ...

فقاطعتها غاضباً محتداً : انني لا استطيع ان اذهب معك ... لا استطيع .. فقد هد كاهلي العمل المسرحي فدعيني واذهبي للبحث عن غيري ..

اجابت بذل وتوسل وقد قطعت كل أمل لها بمساعدتي : وغداً الا يمكنك ان تزور كوخنا الحقير ، غداً؟... الا يمكنك؟. واني لاعهد الممثلين انهم ذوو قلوب رقيقة تشعر بسرعة بألم الغير ..

سكتت قليلاً وراحت تحدجني بنظرات تستطلع أثر كلماتها، وسرعان ماعادت تقول : انك يا استاذ تمثل على خشبة المسرح مآسي الحياة لا كالواقع ، فتعال معي ... تعال لأريك الواقع ،واقع ما حل بابناء أمتك ... تعال لأريك اربعة اطفال اشقياء يبيتون على الطوى ويعيشون منبوذين من مجتمعهم ...

ولاول مرة أثار كلامهـــا شفقتي ، فرحت ابحث في جيوبي الكثيرة عن بعض النقود ذات الفئات الصغيرة ، واخذت تنظر الي وهي تدعو لي بطول العمر ... غير ان ظنها وظني خابا عندما أخرجت قبضتي فارغتين وليس فيها شروى نقير ،فقد كانت جيوبي باجمعها خالية من النقود الكبيرة منها والصغيرة .

قلت : اقسم انني لا املك ولا قرشاً .

اجابت : ولكن ... ما العمل ؟..

وبرأفة غمغمت قائلا : لست ادري ... دعيني بحق السماء .

فراحت تنشج وتنتحب وهي تردد : ولكن ، كيف أعود الى الكوخ وأراهم والمرض يفتك بهم ولا من دواء .. وهم يتضورون جوعاً ولا من طعام .. وليس من يرحم ...

فقلت في سري : كان الله في عونك ... وهل يتطلب مني وانا الممثل الذي اتقاضى من الفرقة مائة وعشرين ليرة لا تكاد تسد أود اسرتي ان افكر في مساعدة الغير ؟.

وبعينين دامعتين رفعت رأسها الى السماء ، وبصوت باك غمغمت تقول : كيف اعود اليهم يا رب ... كيف اقابلهم وانا لا احمل حتى ولا رغيفاً من الخبز اليابس ، والدواء من اين لي الدواء ؟ وبكاؤهم وانينهم يصم آذاني ...

كانت تتكلم بحرارة والدموع تنسكب من مقلتيها بلا انقطاع كالسيل العرم وآهاتها المحرقة تذيب حشاشتها ، ثم توقفت عن النحيب غير ان دموعها كانت ما تزال تكف من عينيها ..

وللمرة العاشرة خلصت اطراف ثوبي من قبضتيها .

فأردفت تقول : انك تصر على تركي هكذا شريدة وقد طردني من قبلك الجميع واشاحوا بوجوههم عني ...

واختنق صوتها بالعبرات ، وتناهى الى سمعي كلماتها الاخيرة وانا اسرع الخطى مبتعداً : اذهب .. اذهب ... سامحك الله ..

ورحت اغذُ المسير في حين كان صوتها يأتيني من بعيد انيناً وبكاءً فأقفلت اذنيّ براحتي وانا اسرع الخطى نحو منزلي ...

وما ان ارتديت منامتي وتهالكت على سريري سعياً وراء الكرى ... حتى استعصى عليّ ، وسدى حاولت ان انام تلك الليلة ، فقد كان ضميري يؤنبني ...

واستطعت اخيراً التغلب على ضميري ، فانا احرى بالمساعدة والرأفة من أي انسان بائس ...

ورحت في سبات عميق ...

***

وفي اليوم الثاني ودعتك في المطار دون ان احدثك عن تلك البائسة لانني كنت قد نسيتها تماماً .

وهنا سكت عفيف عن الكلام برهة فران الصمت علينا ، وعلى ضوء الثقاب الذي اشعل به لفافته ، رأيت في مقلتيه دمعة حرى تترقرق ، فبادرته باستغراب متسائلا : ولكن ، أي غريب في هذه القصة ؟!. وأي عامل فيها كان السبب في تحويلك من ممثل هزلي الى ممثل مأساة ؟..

ظل عفيف برهة صامتاً ، وكأنه يريد السيطرة على ناصية تفكيره ، وأردف بعد حين قائلا : ومر يوم ويومان ، واسبوع ، ونسيت أو كدت أنسى حادثتي مع تلك المرأة ...

وفي نهاية الاسبوع وقبل رفع الستار عن الفصل الاول من مسرحية البخيل بمدة نصف ساعة جلست في غرفتي بالكواليس اقطع الوقت بتصفح الجرائد والمجلات الحديثة منها والقديمة فأقرأ زاويتي المختارة .. لم يكن فيها سوى نعيين لثريين !.

وما كدت اقلب الصفحة ، حتى رأيت صورة ومن

تحتها كلمات قرأتها بسرعة :

« انتحرت ليلة البارحة على صخرة الروشة امرأة مجهولة الهوية فنطلب من ذويها الاسراع لاخذها ، وقد نشرنا رسمها للتعرف بها ، وإذا لم يبادروا لاخذها في مدة ثلاثة ايام قامت البلدية بدفنها » .

وعاد فوقف نظري على الصورة ، وجمدت يداي ، وتقلصت عضلات وجهي وتسارعت دقات قلبي ، وسرت في جسدي قشعريرة باردة ، وجحظت عيناي في محجريها ..

واختلط عليّ الامر ... فعدت وقرأت في روية وتمهل ، بيد أن الاحرف والكلمات والصورة امتزجت بعضها ببعض وزاغ نظري ... فلم اعد أعي ما تحمله لذهني من معنى ...

واثبت نظري في الصورة ...

فقد كانت المنتحرة هي !.. اجل .. هي امرأة تلك الليلة !.. العاهرة ذاتها ! ...

وكانت صدمة هزت اعصابي ، وقفزت الدموع من مقلتي ، فبكيت لاول مرة في حياتي ، بكيت في مرارة وألم ...

تباً لي ، كيف لم اساعدها ...

وسيطرت على اعصابي بعد جهد ورحت اقرأ تاريخ الجريدة ، وراعني عندما وجدتها بتاريخ خمسة ايام خلت ! ...

منيت تلك الليلة على خشبة المسرح بخيبة لم يمن بها ممثل منذ كان المسرح ، وارتفع لغط وسخرية الجمهور معلقين على تمثيلي ، غير انني لم اكن استطيع السيطرة عليهم واضحاكهم ،

وكيف يريدونني ان اضحكهم وقلبي يبكي دماً ؟!.. وفي اعماقي نيران تستعر ، هي شبح جريمتي النكراء التي اقترفتها لتذهب ضحيتها امرأة بائسة ... وتدارك مدير المسرح الامر فاسرع بديلي ليمثل الدور عوضاً عني ، اما صاحب الفرقة فقد اخذ يعنفني ويتوعدني ، غير انني لم اعره اهتماماً انما اسرعت انتزع ثيابي التمثيلية وامسح المساحيق من على وجهي. واوقفت اول تاكسي صادفته وطلبت اليه توصيلي الى مستشفى «اوتيل ديو» حيث الجثة .

وكل ما عرفته بعد ذلك من الطبيب ان احداً لم يتقدم لاخذها فوارتها البلدية .

وتلك الليلة لم يعرف الكرى الى اجفاني من سبيل ، وكانت الرياح تحمل اليّ صوت تضرعات وبكاء ونحيب العاهرة مختلطاً بانين ونشيج اطفالها الجياع المرضى ...

وفشلت في اليوم الثاني على خشبة المسرح ، ولم يكن حظي في اليوم الثالث والرابع خير من سابقيهما .. ففصلت من الفرقة .

واضحت حياتي بعد ذلك جحيماً مستعر الاوار لا يهدأ ولا يستكين وسلسلة من العذاب المرير ...

وعذاب الضمير ، أقضّ مضجعي ، ولم اعد استطيع النوم ، فرحت اهيم في الشوارع على غير هدى إناء الليل واطراف النهار ، ومن كان يعرفني من قبل ، ايقن ان خبلاً اصابني .

وما مررت بذلك الزقاق المؤدي الى منزلنا مرة الا تمثلتها امام عيني وهي تردد كلماتها الاخيرة ، وتوسلاتها ذات النبرات الحزينة .

واخيراً ، افضيت بهمومي ،وهواجسي الى صديق صدوق ، فاخذ هذا يخفف من وطأة عذاب ضميري ، ويبعث في نفسي الثقة والامل أن بامكاني التكفير عن خطيئتي بافادتي لمجتمعي بواسطة المسرح ...

وكان ان فتح صاحبي في وجهي افاقاً جديدة ،فاصبحت انظر الى الحياة والكون والفن نظرة جديدة لم يكن لي بها عهد فيما سلف ...

واعتكفت اربعة اشهر في منزلي كان نتاجها مسرحيـــة «عاهرة من فلسطين» وعدت لأصعد خشبة المسرح ثانية لأمثل باسلوب لا قبل لي به بعد ان احسست بأنني ولدت من جديد واصبحت مواطنا جديداً ... بعد ان وعيت ما للممثل من اثر فعال في توجيه الشعب ، وانه لم يخلق فقط للترفيـه عن النفوس باضحاك الجمهور وابعاد السأم والضجر عن قلوبهم وسلوهم واقـع امتهم ، انما بامكانه كأي مصلح اجتماعي ان يفيد مجتمعه .

كالكاهن في هيكله ، والشيخ في جامعه ، والمحاضر من عـلى منبره ، كذلك الممثل من فوق خشبة المسرح او الشاشة ، بمقدوره التبشير بالرسالة التي يريدها ، فيوقظ النفوس الهاجعة في خصوصياتها والمتكالبة على نفسها ليوجهها الى صالح مجتمعها .

وأفقت من كبـــوة احلامي لاسأل عفيفاً قائلاً : ولكن أتدري يا صديقي انك ارتكبت جريمة لا تغتفر ؟!

وبلجاجة قاطعني : اجل .. اني ادرك عظم الجريمة التي ارتكبتها ، لقد كنت سبباً في انتحار امرأة بائسة ، كل جريمتها كانت ان زوجها وعى حقيقته في الحياة فقدم كل ما يملك لامته ولم يبخل حتى بالدماء ...

اجبته بقولي : كلا ، انا لا اعني الام، ولكن ابناءها !.. كان عليك واجباً تجاه ابنائها ؟.

اطرق برهة يفكر وسرعان ما رفع رأسه ونظر الي قائلا : نعم ، لقد فتشت كثيراً وسدى حاولت ان اعلم شيئاً عنهم ، او اعثر حتى ولو على ظلهم ، ولم اترك منزلاً إلا قرعته ، وبناية إلا سألتها ، وقصراً الا استعلمته ، وشارعاً الا فتشته ...

واختلط علي الامر ...

لم يكن هناك اربعة اطفال مشردين فحسب ، وانما كان هناك اربعمائة الف طفل شريد ... ومليون فلسطيني يعيشون في مجتمعهم وبين اخوتهم وكأنهم غرباء !!.

ان هؤلاء جميعاً يمنون النفس ابداً بالعودة الى فردوسهم السليب.

وأيقنت اخيراً انه لا يمكن اعادته، واعادة بقية اجزاء الوطن السليبة الا عند اكتمال وعي افراد الامة ، فينطلقون داعمين وحدتهم ووعيهم بالقوة ..

وما يجب ان يدركه الجميع هو :

« ان الطريق الى فلسطين ليس في حال من باريس، او لندن اونيويورك، اوموسكو، او روما، انما هو من اجزاء الوطن » .

اوقفت السيارة في « زاروب الوطواط » امام منزل صديقي عفيف وقد انجلى عن عيني سبب تحوله عن التمثيل الهزلي الى المأساة .

وبعد ان ترجل من السيارة وقبل ان يلقي التحية التفت الي قائلا :

سهى علي ان اخبرك يا انيس ان الشيء الذي عرفته اخيراً والذي خانتني ذاكرتي في معرفته بادىء الامر ، فعادت لتتذكر ،

وتحققته من الممثلين الذين كانوا معي في فلسطين بواسطة الصورة المنشورة في المجلة ، هو ان تلك البائسة المنتحرة لم تكن الا « كوثر » ، اجل اختنا « كوثر » كما كنا نناديها !!. زوجة التاجر الفلسطيني الكبير « توفيق حجار » !!

فهرس

*

كتب للمؤلف

قيد الطبع

هذا جنته امي !..	رواية اجتماعية ، وقصص أخرى
مائة شخصية عرفتها من الجزيرة	دراسة وتحليل لكبار شخصيات الجزيرة
نخب الهزيمة !..	مجموعة قصص وصور اجتماعية
اللحن الاخير	مأساة موسيقار
طاغية.. وصعاليك!..	مجموعة اقاصيص مختارة من الأدب السرياني
ابناء الشقاء	رواية انسانية، وملحمة عن الطفولة المشردة
العطر النتن !..	مجموعة قصص اجتماعية
عمالقة الاخراج السينمائي في العالم	دراسة وتحليل لجهابذة الاخراج العالميين
الثلوج المحرقة!..	مجموعة قصص انسانية
عودة الابن الضال	رواية من صميم الواقع
صديق العائلة	مسرحية في خمسة فصول
الزائر الغريب!..	مجموعة اقاصيص مختارة من الادب الغربي
عاشقة الذكريات	مأساة اجتماعية
الغد يأتي متأخراً !..	مجموعة قصص بطولية
لا ربيع بعد اليوم !..	قصة الشباب القلق الحائر من امر غده
زهرة في الوحل !..	مأساة امرأة سقطت مرغمة في حمأة الرذيلة

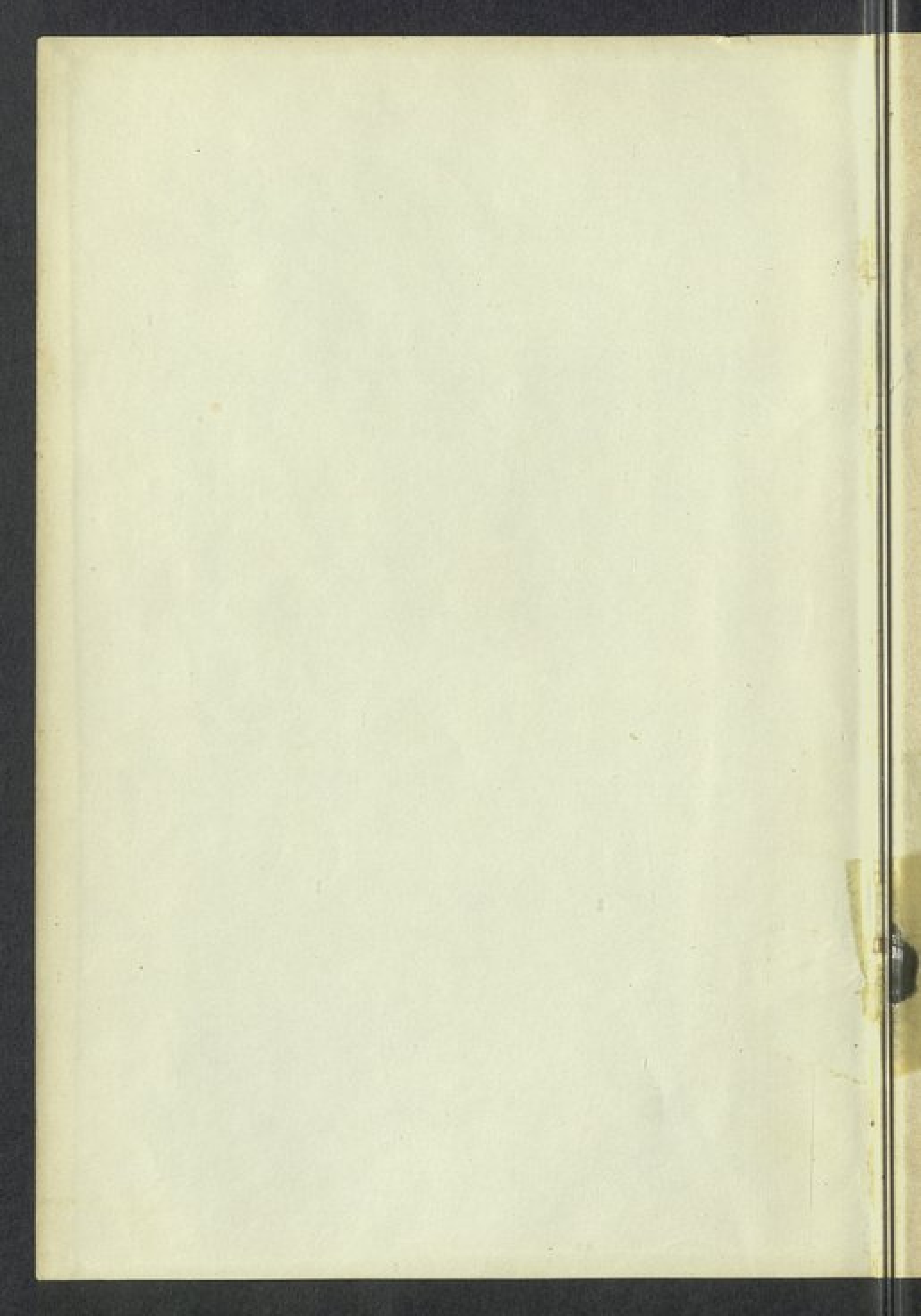
قريباً يصدر عن دار الصراع الفكري

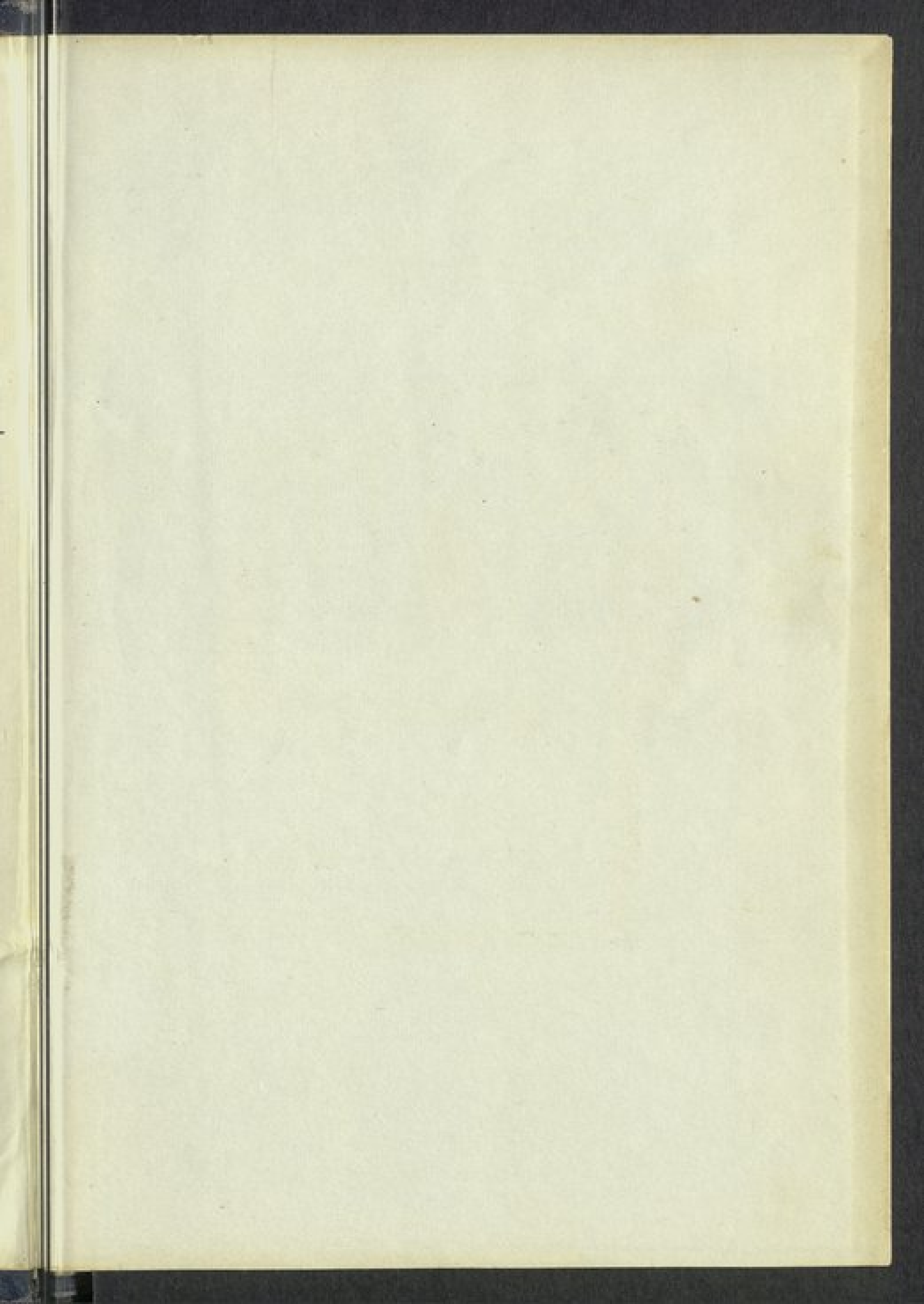
تنبيه

ورد في هذا الكتاب بعض الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارىء ، فنرجو المعذرة .

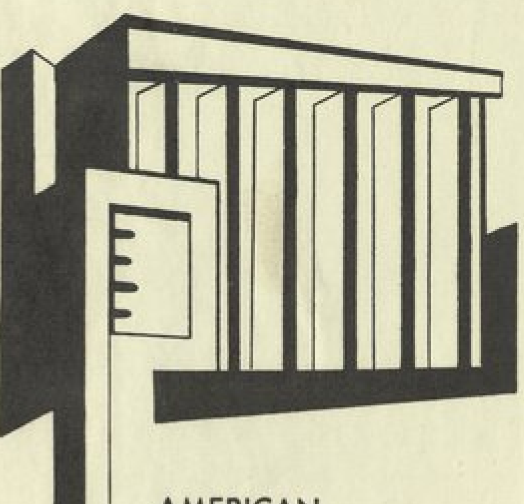
دار الصراع الفكري

مطابع دار الكشاف - بيروت






الياس ،الياس مقدسي
ليته لم يعد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037906


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

